

خاتمة الطاف

obeikandi.com

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٥٣٣٩
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٩٤ - ٣

١ / ٧٩ / ٣٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

على الجارم

خاتمة اللطاف

اقرأ ٥٨

كارالمعارف

اقرأ ٨ •

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع. ١

خوف

لم تشهد مدينة الفسطاط منذ أن دق عمرو بن العاص بها أطنابه كهذين الفارسين ، وقد التفا بعباءتيهما السوداوين فزادا وظلمة الليل البهيم وحشة وإرهاباً ، وخطا بهما جواداهما في حذر الخشية فلم يكن يتردد من أنفاسهما إلا ما يتردد من همسات النسيم الوداع يهز أطراف الغصون؛ اخترق الفارسان خضم الظلام كأنهما شبحان من أشباح الظلام ، لا تكاد تحس لهما حركة أو تسمع ركزاً ، أو كأنهما تمثالان من صنع الفراعين الأولين سرت إليهما روح خافتة خامدة فبقيا على ما عهد فيهما من جمود إلا ما كان من يد تقبض على العنان ، ورجل تثبت في الركاب . صمت وإطراق مخيفان حقاً ، وليل وهدوء مخيفان حقاً ، والهدوء في ذاته رفيق بالنفس ، حبيب إليها ، ولكنه إذا اقترن بالظلام كان مخيفاً ، وكان مبعثاً للهواجس ومثاراً للخيال الجامح الذي يخلق ما شاء من صور ، ويتدع ما أراد من تهاويل . وخير لك ألف مرة إذا لفك الليل في مكان موحش أن تسمع حولك صخباً وضوضاء من أن تسمع هدوءاً وصمتاً ، إذا صح أن الهدوء والصمت يسمعان . ذلك لأن الهدوء مظنة المفاجأة والاعتقال ، وهل قتل الصيد إلا ذلك الهدوء الذي يتصنعه

الصائد لينقض ؟ وهل فتك القاتل بفريسته إلا بعد أن خدعها
 بجو من السكون الشامل ؟ وهل يسرت الفطرة للحيوانات الضارية
 سبيل الفتك إلا بتلك الأقدام اللينة التي لا تحس إذا مست الثرى ؟
 سار الفارسان في صمت وإطراق ، وظللهما الليل بصمته
 وإطراقه ، فكان لا يرى إلا سراج خافت هنا وهناك يلمع في
 نافذة ، ولا يسمع إلا طنين بعوضة أتخمتها الدماء فأرسلت
 صوتاً ضعيفاً متقطعاً ، ولا يحس إلا رفيف خفاش عاد من
 بعض الحدائق بعد أن نال من ثمارها .

سار الفارسان هكذا صامتين جامدين فمرا بجامع العسكر ،
 وكان أبو هلال السبكي مؤذن المسجد ينام فوق سطحه ، واتفق
 أن أيقظه بعض الهوام ، فبدرت منه التفاته ، فرأى الفارسين .
 وكان من كبار المخرفين يحتفظ إلى حفظه القرآن الكريم بثروة
 واسعة من أقاصيص الجن والشياطين ، فما كاد يرى الفارسين
 حتى حمله وتمم بكل ما وعى صدره من صنوف الاستعادات
 والأدعية ، فلما جاوزاه تنفس الصعداء ، وأخذ يسكن رعدة
 هزت أوصاله ، ويحدث نفسه في همس لم تسمعه أذنه : أفارسان
 هما ؟ لا . إنهما لم يكونا فارسين ، أنا واثق بذلك ثقتي بوجود
 هذه المثذنة القائمة . وأنى لفارسين أن يسيرا في هذا الليل
 الداجي ، وفي ليلة يسكن فيها كل رجل إلى أهله ويهدأ ليستقبل
 العيد مرحباً نشيطاً ؟ إنهما لم يتحركا ولم يتهامسا فكيف يكونان
 رجلين ؟ لقد رأيت بعيني شرراً يتطاير من أعينهما ، ورأيت

بعيني أنهما كانا يركبان أسدين لا حصانين . نعم لقد كانا أسدين ما في ذلك شك . لقد سمعت زئيرهما بأذني . ولقد اتجه أحدهما يبصره إلى الأعلى كأنه أحس بمكاني فأخفيت وجهي خلف شرفات المسجد .

ويلي من هذه الأرواح الشريرة التي لاتدب إلا في حلك الظلام ! وإلى أين كان يسير هذان الشيطانان ؟ أغلب الظن أنهما لا ينتهيان إلى خير . أكان عليّ أن أصبح بملء صوتي حتى أوقظ النوام لينقضوا عليهما ؟ لا . لو فعلت وتيقظ الناس لتسربا في الهواء ، ولم يكن جزائي إلا أن أستم أو أرمى بالخنون . غداً أقص على الناس هذا الخبر الرائع ، وسيكون حديث العيد ، وسوف ينالني شيء من الخير كلما قصصته على من لهم ولوع بمثل هذه الأخبار .

ابتعد الفارسان عن جامع العسكر فمال أحدهما على صاحبه وقال هامساً :

— كيف نجتاز الباب الشرقي يا أبا الطيب ؟

— هذا ما كنت أفكر فيه يا ابن يوسف ، ومن العجيب

أننا دبنا كل شيء ولم يخطر ببال أحدنا أن الباب سيكون مغلقاً ، وأن الحارس قد يكون شريراً عنيفاً .

— لو كان الحارس شكساً صحاباً لقضى الأمر وكتبت

علينا الخيبة .

— خل عنك اليأس يا ابن أخي ، فإن من خصائص هذا

الخنجر أنه يسكت الأصوات .

— لن ألوث يدي بدماء الأبرياء .

— إن من يقف في طريق عزيمتي لا يكون بريئاً . فابتسم

صاحبه ابتسامة ضاعت في الظلام وقال :

— أخشى أن أقف في طريق عزيمتك .

— لا تمزح يا خزاعي ، فإنما نحن في جد عابس دميم .

يم تشير إذا لم تقتل الرجل ؟

— لقد اعتدت ألا أفكر في أمر إلا بعد أن أعرف ما يحيط

به من شئون ، وبعد أن ألتقي بصعابه وجهاً لوجه ، فدعنا الآن

من التفكير ففعل الله معقب فرجاً .

كان المتكلم عبد العزيز الخزاعي زعيم العرب ببلييس ، وكان

يخاطب صديقه وصفيه أحمد بن الحسين المتنبى ، وقد عزم في

تلك الليلة على الرحيل عن مصر والفرار من وجه كافور ، بعد أن

أقام أربع سنوات في ضيافة الأسود يمدحه بروائع الشعر ،

ويخلع عليه من صفات الجلال والبطولة ما يندر اجتماعه في

إنسان . ولم يقصد كافوراً إلا بعد أن خدعه عماله ، أو خدع

هو نفسه بأنه سينال عنده الحظوة الكاملة ، والمنزلة الرفيعة ،

وأنه سيوليه إمارة تسكت صائح طموحه ، وتشفى غلة نفسه ،

وترفعه من وهدة الشعراء المجتدين ، إلى قمة الملوك الحاكمين .

فأقام بمصر يتزلف إلى الأسود ويتملقه ، ويضفي عليه حللا من

الثناء لم ينسجها زهير لهرم بن سنان ، ويثب بنسبه المجهول دفعة

واحدة حتى يبلغ به ذروة معدّ بن عدنان. وقد أنفد الأسود حيله ، فكان يستجديه ويسأله لإنجاز وعده في لطف ووداعة ، أو في خشونة وإلخاف . وكثيراً ما كان ييأس فيثور على كافور وعلى نفسه وعلى الناس جميعاً ، ويلعن الحظ العاثر الذي ساقه إلى مصر وأوقعه بين برائن هذا الزنجي اللعين ، ويبكي على أيام سيف الدولة وعلى سالف عهده بحلب ، وما كان يتقلب فيه من نعيم في ظلال هذا العربي المجاهد الكريم الذي كان يفهم شعره ، ويقدر مكانته ، وينزله بين سمعه وبصره ، ولكنه بطر وأشر فلاقى جزاء البطر والأشر. سخط على الخنة التي كان ينعم فيها بوارف من العيش هنيء ، فخرج منها مذعوماً شريداً ، فساقه النحس وقاده نكد الطالع إلى جحيم تأجج فيها الخلف والكذب والمطل والخديعة والرياء . إلى جحيم يرى فيها نفسه وهو العربي العزوف ، والشريف الأنوف ، الذي تصغر في عينه العظام ، ويرى بعزيمته إلى أبعاد مطارح الآمال ، مدفوعاً إلى أن يقول للقرد أنت آية الجمال ، وللكلب أنت العزة في تمثال ، ولابن آوى أنت صفوة الصحاب ، وللثعبان أنت ملح اللمي عذب الرضاب . وأن يقول لكافور :

أنت شمس أنت بدر أنت نور فوق نور

إلى جحيم أحرق فيها آماله ومطامحه وعزته وشممه ، وهدم فيها كل مجد بناه ، وشرف أثله وأعلاه ، وأصبح من سوقة الناس شاعراً مستجدياً بغيضاً ، يرمى إليه العبد بفتات موائده ، ويلزمه أن يقول بكل لقمة يزدرد لها بيتاً من الشعر في وصف

آلائه الحسنی ، وآیات عظمته الكبرى . إلى جحيم سلط فيها
كافور عليه زبائنه ينتقصونه ويزدرونه ويتجسسون عليه ، فلا
ينطق بكلمة إلا وهى فى كتاب ، ولا يخطو خطوة إلا ولها
عندهم حساب .

صاق المتنبي بمصر واختنق بعد أن رأى أنه فقد فيها كل
شئ ، ولم يحصل على شئ . وبعد أن رأى شبابه يولى قبل
أن يبلغ من الدنيا مأرباً ، وغصن عوده يدوى وتسقط أوراقه
جافة يابسة كما تسقط أوراق الحريف إذا عصفت بها الرياح ،
وبعد أن رأى الشر يلعب فى عينى كافور ، ورأى النمر يستجمع
للوثوب ، والصل الأسود يقرب منه رويداً رويداً ليقبله قبلة
الوداع ، وبعد أن تواترت إليه الأخبار بأن كافوراً ووزيريه
ابن القرات وأبا بكر بن صالح يعدون الفخ لاصطياد الطائر
الطموح المغرور ، وبعد أن جلس الجواسيس والعيون حيال
داره لا يفارقونها فى صباح أو مساء .

صاق المتنبي بمصر واختنق حينما تنكر له أهلها ، وناصبه
العداء علماءؤها ، ومشى له الضراء شعراؤها ، وأصبح شعره فيها
سخرية فى كل مجلس ، ومنتدراً فى كل سامر . ولو لم يخفف الله
عنه هذه البلوى بحب عائشة بنت رشدين وصادق وفائها وحلو
حديثها ، وبإخلاص أخيها صالح وكريم حفاوته ، وبمودة
عبد العزيز الخزاعى ، ورعاية إبراهيم العلوى ، لبخع نفسه
الحزن ، ولقضى عليه الهم ، ولذهبت نفسه فى الهالكين . كان

يحب عائشة ، وكانت تحبه حبا عذرياً قدسياً شريفاً يناغم عزتها وكرم أرومتها ، ويساوق شرفه وأنفته . وكان يزور بيت أخيها بين الحين والحين فيجد في حنوها الجنة والنعم ، وكثيراً ما كان يضم المجلس الشريف لإبراهيم العلوي والشاعر ابن أبي الجوع وشيخ العرب عبد العزيز الخزاعي .

وكان للمتني بصيص من أمل في أبي شجاع فاتك ، وهو من كبار قواد دولة الإخشيد ، ولكن الموت عاجله فأطفاً آخر وميض لمطامع الشاعر ، وتركه مع كافور يتسازعان البقاء ، ويتباريان في فنون الدهاء والرياء .

لم يبق إلا لأبي الطيب عيش بمصر ، ولم يبق له إلا أن يرحل وأن يرحل سريعاً ، فقد ينطبق عليه الفخ في أية لحظة . وقد تنقض عليه الصاعقة وهو يتأمل في جمال الأفق . ولكن ماذا يصنع وقد نصب له الأسود الأرصاد ، وبث خلفه العيون ، وعقد العزم على أن يحتبسه بمصر وألا يدع له إلى الفرار سبيلاً ؟ فقد كان العبد يخشى عاقبة فراره . وكان يخاف بعد أن أذاقه عذاب الهون بمصر أن ينطلق لسانه بهجائه إذا استدبر الفسطاط ، وأن يجعل من اسمه سبة الأبد ، وأضحوكة الأجيال .

ضاقت الدنيا في وجه المتني ، ورأى أن حبل كافور أخذ يقرب من رقبتة رويداً رويداً ، فدبر مع أصدقائه أن يفر من مصر ليلة عيد الأضحى من سنة خمسين وثلاثمائة ، وأن يساعده على الفرار صديقه عبد العزيز الخزاعي ، وأن يرحل ابنه وعبيده

عن مصر قبل فراره بأيام .

وقد تمت المؤامرة ونفذت دون أن يخرم منها حرف ، وتسلسل الشاعر في هذه الليلة من داره في صحبة صديقه الخزاعي بعد أن ترك تحت غطاء سريره ورقة كتب بها قصيدة في ذم كافور نفت فيها سمه ، وشفي غليل صدره ، ولطّخ كافوراً بهجاء مرّ مقذع يمحي جلده الأسود ولا يمحي ، وتزول بشاعة وجهه ولا يزول ، ورماه بسخرية لاذعة وكلم ممض أصغت إليه الآفاق ، وتداولته الأزمان ، وتندرت به الأجيال ، وبقي بقاء الشمس ، وترك للعبد ذكراً خالداً لو كان يطمع في مثل هذا الخلود . ولا يزال أبنائنا وبناتنا وشباننا وشيبنا ينصتون في شغف وشوق إلى :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟
فيضحكون ويطربون .

خرج المتنبي في هذه الليلة من الفسطاط فاراً من وجه كافور ومعه صاحبه الخزاعي ، فلما اقتربا من الباب الشرق ألقيا عنده رجلاً ضخماً مفرطاً في الطول ، قوى العضل ، موثق الخلق ، كأنه صخرة نحتت على هيئة الرجال . ولم يكن فراج القوصي حارس الباب ، ولكنه كان ينوب في هذه الليلة عن زوج أخته علقمة السباعي ، الذي أراد أن يرفه عن نفسه ليلة العيد بالراحة وبعض اللهو ، وكان فراج على قوة جسمه ضعيف العقل خامد الإدراك ، ساذجاً إلى حد البلاهة ، عنيفاً إلى حد الجنون ، كأنه الهر المستوحش لا تراه إلا متمراً متوجساً ، نشأ في أعلى

الصعيد ببلده قوص نشأة جافية ، بين جهل وبداعة وشظف من العيش ، وكأن الفطرة رأت أنه نال من قوة الجسم وركانة العضل ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ، فلم تعطف عليه إلا بقليل من الإدراك لا يخرججه من نطاق الحيوان الأعجم إلا بشق الأنفس وبعد لأى وجهد . كان بقوص يرعى الماشية ويعيش معها : يأكل مما تأكل ، ويشرب مما تشرب ، ويسبح في النيل كما تسبح ، وينام حيث تنام ، ويفهم لغتها وتفهم لغته ، ولم يكن بينه وبينها من الفروق إلا أن هذا قائم يمشى على رجلين . وتلك متطامنة تمشى على أربع . وإن أحداً لا يدرى إلى الآن أمنها أخذ عقله أم منه أخذت عقلها ؟ ولكن الناس كانوا يرون قطيع الجاموس وفيه فراج فيظنونه مالا سائياً ، وكانوا في أحيان قليلة يرون فراجاً وحده ، فيعجبون كيف شرد هذا الحيوان عن القطيع ، وكيف ترك هكذا هملاً ؟ وكان شباب القرية ومجانها كثيراً ما يتندرون به ويهارشونه : جلسوا مساء يوم عند شاطئ النيل ، وقد جاء ليسقى قطيعه ويشرب ، فسأله خبيث منهم معاجزاً :

— كم عدد قطيعك يا فراج ؟ فوقف ذاهلاً وقد فتح فاه ، ثم بدا على وجهه الجلد ، وقال في تلعم :
— عدد القطيع ؟ وماذا أريد من عدد القطيع ؟ إنه يأكل ويشرب وكفى .

— لو سرق سارق إحدى هذه الجواميس ، أكنت تعرف

إذا لم تعرف عددها ؟

— أعرف كل شيء ، والذي أعرفه أكثر وأكثر أن سارقاً لو جرؤ على أن يمد يده إلى جاموسة منها لشربت دمه شرباً .
ثم نظر إلى سائله في سخرية وتحد وقال :

— على أن عددها من أيسر الأمور وأهونها ، فهذه واحدة ، وهذه واحدة ، وهذه واحدة . . .

— كم واحدة إذاً ؟ فأسرع بعض الشبان ساخراً وقال :

— الله سبحانه وتعالى أعلم ، فالتقطها فراج في عجلة واعتباط كأنه ظفر بالقول الفصل والرأي القاطع ، وصاح في جدل : الله سبحانه وتعالى أعلم .

طلب الخزاعي من فراج في رنة الأمر وعظمة الواثق أن يفتح الباب ، فنظر إليه فراج وأخذ يصعد فيه بصره ويصوبه ، ثم فتح الله عليه بكلمة فقذف بها في سرعة حتى لا ينساها وقال :

— إني لست حارس الباب .

— من أنت إذاً ؟

— أنا فراج . فعلم الخزاعي أن في الرجل بلاهة ، وأن عليه أن يسير في الأمر على نحو لا ينفر منه ضعاف العقول .
فقال :

— أهلاً بفراج ! أين المفتاح يا فراج ؟

— ماذا تريد من المفتاح ؟ إنه في هذه الكوة ، ولكن

علقمة أمرني ألا أفتح لأحد .

— صحيح ، إن علقمة رجل أمين ذكي شديد الحذر ،
وقد عرف كيف يختار رجلاً مثلك أميناً ذكياً شديد الحذر ،
غير أنه من المحقق أنه أمرك ألا تفتح لأحد يجيء من خارج
المدينة ثم يطرق الباب طالباً الدخول إليها ، فإن في ذلك خطراً
عظيماً ، لأنها تكون مصيبة داهية حقاً أن يدخل المدينة عدو .
ولكنه لا يعقل أن يأمرك بالألا تفتح الباب لأي رجل يريد
الخروج من المدينة ، الخروج من المدينة يا فراج غير الدخول
إليها ، أين تسكن يا فراج ؟
— أسكن في حارة الحمّالين بجانب الجبل .

— هل بحجرتك فيران ؟

— كثير جداً .

— عظيم ، إذا أراد فأر في حجرتك أن يخرج منها إلى
الحارة أكنت تأبي عليه أن يخرج ؟ فابتسم فراج ابتسامة جعلت
فه يتصل بأذنيه كأنه فهم معضلة من أعقد مسائل الفلسفة وقال :
— لا . يجب أن يخرج ، إن الخير في أن يخرج .

— إنك رجل متوقد القريحة . وإذا أراد فأر جديد أن

يدخل حجرتك فهل تسهل له سبيل الدخول ؟

— لا . أبداً .

— هكذا نحن يا فراج . نحن سنخرج ، وليس في ذلك

أى حرج ، ولا يمكن أن يكون علقمة نهاك عن أن تخرج أحداً .

— إن كلامك صحيح معقول ، ولكن يبقى أن علقمة أمرني
 ألا أفتح الباب ، وهو لم يذكر دخولا ولا خروجاً ، ولكنك
 تجيء الآن فتربك عقلي بمسألة الدخول والخروج ، وأظن
 الأحوط لي أن أثبت على أمر صاحبي ، فاذهب عنى بالله
 عليك فقد أتعبت عقلي بالحجرة والفيران ، وبمشكلة الدخول
 والخروج ، إن أمي حينما أرسلتني إلى القسطاط لأشتغل بنقل
 الأحجار للدار التي بناها مولانا كافور ، أمرتني أن أطيع
 علقمة وألا أخالف له أمراً ، فاذهب إلى شأنك يا رجل ، وبعد
 قليل يؤذن الفجر ، وينبسط النهار ، ويحيى علقمة ، وهو أعلم
 مني بمعنى الدخول والخروج .

فظهر الألم على وجه الخزاعي ، ورمى بنظرة نحو فراج ،
 ثم أرسلها نحو المنتبي ، وكان في هذه النظرة كثير من العجب
 والدهش والحسرة ، وكأنها على سرعة وميضها كانت تقول :
 أحياء هذه العبقرية الضخمة ، وذلك النبوغ الخارق أصبحت
 معلقة بكلمة يقولها هذا الغرّ الأبله الذي لا يعقل ولا يبين ؟
 أذلك العقل المهرزي ، والذهن الوقاد ، رمى به نحس الطالع إلى
 أن يستجدي بسمة رضاً من هذا الحيوان الجاهل المعتوه ؟
 أليس من أضحائك القدر ومبكياته ، أن يقف المنتبي ، وهو
 الفارس الكرّار ، والبطل المغوار ، الذي ملأ خياشيمه غبار
 الوقائع ، ذليلاً مستعظفاً أمام ذلك المرور الأحمق ، والرعيدي
 المائق ؟ أليس من خرف الزمان ، وجنون الأيام ، أن يخضع

الشعر ، وتطأطأ الفلسفة ، وتتضاءل الحكمة ، ويذل المثل الشroud ، لهذا الغبي العبي المأفون ؟ أهذه تصارييف القدر التي يسمونها ؟ أهذه أحكام الفلك الدوار التي يجب أن نفتنع بها راضين أم ساخطين ؟

وما كادت تعود إليه نظرتة حتى همس المتنبى في أذنه قائلاً :
— دعنى أقتله يا ابن يوسف .

— اصبر قليلا فالأمر لا يستحق كل هذا ، وليس هو من نوع الشرف الرفيع الذى يجب أن يراق على جوانبه الدم .
وما كاد يتم قولته حتى سمعت خطوات أخذت تقترب قليلا قليلا ظهر من ورائها رجل شعشاع يحمل فى يده هرأوة طويلة غليظة ، ويلبس ثياب العسس . فأخذت قلب الخزاعي رعدة ، وغاله ارتباك وذعر ، ولكنه جمع إليه نفسه وقال :

— وهذا أحد العسس يا فراج وهو يستطيع أن يفهم ما نقول . فاهتر العاس لهذا الثناء الضمنى على ذكائه وعبقريته ، وقال مبتسما .

— ما الأمر ؟

— الأمر فى غاية السهولة واليسر ، أنت تعرف يا . . . يا . . .
فأسرع العاس قائلاً :

— شماخ الأحول .

— أنت تعرف يا شماخ أن مولانا كافوراً أمر بضرب دنانير جديدة ، وأمر أن يرسل قدر منها إلى عامله بالرملة ولا بد أنك

تعرفه يا شماخ . فا بتلع شماخ ريقه ، ورأى من واجب العظمة
والذكاء وكرامة المنصب أن يكون يعرفه ، فقال :

— نعم . . . نعم . . . أعرفه .

— إنه الحسن بن طنج .

— نعم الحسن بن طنج بلا شك ، إنه الحسن بن طنج .

— وأنت تعرف يا شماخ أمر عصابات اللصوص الذين

تمتلىء بهم هذه المدينة . فهزّ شماخ رأسه مزهواً حين رأى

انسياق الحديث إلى شأن يستطيع الكلام فيه وقال :

— اللصوص يا سيدى ؟ إنهم كثيرون منتشرون فى أنحاء

المدينة ، وكبيرهم مسافر بن طلحة ، وهم يا سيدى من قبائل

القيسية ، يضربون خيامهم بأهناس ، وهى كورة إلى الجانب

الآخر من النيل تقرب من الفسطاط ، ولا تخلو ليلة من سرقة أو

نهب أو غارة . كنت أمرّ ليلة أمس بزقاق القناديل فرأيت باب

إحدى الدور مفتوحاً ، فعجبت للأمر ، ودخلت الدار فلم

أسمع بها حساً ، فلما اقتربت من دهليزها رأيت رجلاً مكموماً

مكتوفاً ملتقى على الأرض ، فتأملته فإذا هو إسحاق الجوهري

الهودى ، وهو رجل شحيح جديب الكف جماع مناع ، لو

عرف أن فوق مناط الثريا درهما لطار إليه ، وهو يعيش وحده فى

هذه الدار ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا يؤنسه فى وحشته إلا

أكداس من المال والجواهر ، فأسرعت بحل وثاقه وفك كمامته ،

وعلمت بعد جهد أن اللصوص سطوا على داره وأخذوا كل ما

فها من جواهر وتركوه جثة خامدة بين الموت والحياة . إن سرقة كهذه يا سيدى لا يجرؤ عليها إلا مسافر ورجاله . وخاف الخزاعى أن يسترسل هذا الثرثار فى الانطلاق وفى أقاصيص السرقات التى يكاد يخطئها العد ، فقال :

— أراد مولانا كافور أن يرسل أكياساً من الدنانير الجديدة إلى صاحب الرملة ، ووكّل إلينا السفر بها فكتمنا الأمر خوفاً من اللصوص ، وعزمنا أن نسير خفية تحت جناح الليل حتى لا يشعر بنا أحد منهم فيتعقبنا فى طريق الصحراء مع بعض رجاله ، ويغتصب منا ما نحمله .

— هذا رأى حازم يا سيدى ، ونعم والله ما فعلت . هؤلاء اللصوص يا سيدى . . وخاف الخزاعى أن يندفع الرجل إلى أحاديث اللصوص وأفاعيلهم ، فأسرع ومد يده إليه بدينار وقال :

.. وهذا نوع الدنانير التى أخرجتها دار الضرب حديثاً . فوثب فراج وأخذ الدينار ونظر فيه ، وقال هازئاً :

— وهذا درهم أصفر ! فمد شفاخ يده واختطف الدينار وحمل فى يده بشره ونهم ، وقال :

— تباً لك من أبله ممرور . إن الدرهم لا يكون أصفر أيها الجاهل . إن الدرهم من فضة ، والفضة بيضاء ، أما الدينار فن ذهب ، والذهب أصفر . أعرفت أيها الغبي ؟ إنه دينار كافورى جديد ، وهو يساوى فى قيمته خمسة دنانير .

وحينما لمح الخزاعي الجشع في عيني شماخ لمح معه الفرصة
المواتية ، فقال :

— إن هذا الدينار هبة خالصة لمن يسبق منكما إلى فتح
الباب . وما كاد يفرغ من قوله حتى وثب شماخ إلى الكوة ،
وأسرع فالتقط المفتاح وأدخله بغلاق الباب وأداره فانفتح ،
ثم هز يده بالدينار وصاح : اخرجوا أيها السيدان .
فأسرعا إلى الباب ، وصاح الخزاعي جذلان فرحاً : لقد
استحققت الدينار يا شماخ ! هكذا الشهامة ! وهكذا البطولة !
وبقي فراج ينظر إليهما مذهولاً دهشاً واجماً ، وهو لا
يعرف ما جرى ، ويستنجد عقله ليعرف أول الأمر وآخره فلا
ينجده ، ولم يبق في ذهنه من كل هذه المسألة المعقدة إلا
أن الدرهم يجب أن يكون أبيض ، وأن الدينار يجب أن يكون
أصفر .

وانطلق أبو الطيب والخزاعي كأنما أطلقا من عقال .

وجعل المتنبي ينظر من بعيد إلى فراج وشماخ وينشد :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية	شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق	تخطى إذا جئت في استفهامها بمن
لا أقترى بلدا إلا على غرر	ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم أحدا	إلا أحق بضرب الرأس من وثن

حيرة

أخذت تباشير الصباح تبدو في الشرق كأنها نهر من نور
تتهامس أمواجه ، ويتلألأ فوقها حبابه ، وأذن زنجي المين
بالرحيل فطفق يقتطف أزهار النجوم فلم يترك إلا واحدة بقيت
في الأفق لماعة وهاجة خفاقة ، كأنها ترتعد فرهاً من أن يفرقها
سيل الصباح . وزجر الفارسان جواديهما فانطلقا مع الرياح
كأنهما من الرياح ، وانجردا كأنهما القضاء المنقض ليس له
مرد ولا عنه محيد . وصبأ السوط عليهما ظالمين فانصبا كما ينصب
السيل هداراً عجاجاً لا يقف في طريقه شيء ، وبميا بطرفيهما
إلى البعيد فأصبح قريباً ، وكأنما أعدى عدوهما الأشجار والنخيل
فعدت معهما إلى حيث يقصدان . وعجبت الطيور في السماء
أن يكون منها طيور ذات قوائم ، وعبس وجه الأفق بعد أن
كاد غبارهما يسد معاطس الأفق ، وشكت الأرض من ضرب
سنابكهما المتلاحق وظنت أنها تلاقى جزاء زلتها في أن ترضى
بأن تكون أمماً لهذا الإنسان الذي خلق من طين !

أشرقت الشمس على الفارسين كأنها قرص من الذهب
النضار ، وبعثت إلى الكون نوراً وحياء كعادتها في كل يوم ،
وهي لا تعرف ماذا يفعل الناس بالنور والحياة ، ولا تعرف أن
الحياة التي تمنحها فيها معنى الموت وفيها معنى الفناء ، ولكن

ما شأنها هي بمن يعيش أو بمن يموت؟ إنها سراج إلهي يستضيء به من أراد أن يستضيء ، إنها تضيء للأعمى ، وتضيء للبصير ، وتشرق على البئر والفاجر ، ولكنها على أي حال خير من السحب البله التي تترك الرياض الضمأى وتصب ماءها مداراً على الأراضي السبخة التي لا تخرج زرعاً ولا تنبت بقلا ، وهي خير ألف مرة من الحديد الذي يخدم الإنسان ويقتله .

أشرفت الشمس على الفارسين فكفكفا من عانى فرسيهما بعد أن جاوزا الفسطاط بأميال ، وبدت الزروع والكروم والنخيل يداعبها النسيم فينفض عنها غشية النعاس ، واستيقظت القرى والدساكر ودب فيها ضجيج الحياة ، بين ترنم الطيور ، وصياح الديكة ، وبين ثغاء وخوار ونباح . وكان كل شيء في الكون مشرقاً بساماً ، وكان كل شيء ضحوكاً مرحاً ، وكان كل شيء يسطع بفطرته النقية على ما حوله فيزيده تألقاً وإبتهاجاً ، حب وسلام وجمال ، هكذا خلق الكون ليكون ، وهكذا يجب أن يكون ، ولكن الإنسان المشثوم الشقي بنفسه ومطامعه ، يقلب هذا الحب عداً وشكاسة ، وهذا السلام حرباً وصراعاً ، وهذا الجمال قبحاً ودمامة . كان كل شيء في الكون جميلاً مشرقاً إلا المتنبئ ، فإنه كان واجماً عابساً منتفخاً بالشر مشحوناً بالبغضاء ، ناقماً من الكون ومن كل من في الكون ، يشكو ويهمهم :

أما في هذه الدنيا كريم
 أما في هذه الدنيا مكان
 تشابهت الهائم والعبدي
 وما أدري إذا داء حديث
 كأن الأسود اللاني فيهم
 أخذت بمدحه فرأيت لهواً
 ولما أن هجوت رأيت عيساً
 فهل من عاذر في ذا وفي ذا
 إذا أتت الإساءة من وضع
 فالتفت إليه الخزاعي في ألم وحسرة قائلاً : هوّن عليك
 أبا الطيب ، فإن نجاتك من الأسود حياة جديدة ، ولا يزال
 في العمر مقتبل ، ولا يزال لآمالك مسبح في هذا الكون
 المضطرب بالآمال ، وإن مثلك من اتخذ من الإخفاق سلماً ،
 ومن الهبوط ذريعة إلى الصعود . والتجربة عقل ثان ، وإن لك
 من شعرك ورصين خلقك وبعيد طموحك ما يغزو لك الدنيا
 ويذل الأمراء . انظر أبا الطيب ، إنك لم تفقد شيئاً بل لقد
 ربحت كثيراً ، نزلت على كافور فتغفلته واستوليت على كثير
 من ماله ، ثم فررت منه كما يفر الماء من خلال الأصابع ، ثم
 أرسلت هجاءه في الآفاق تتناوح به الرياح ، وتسير به الركبان ،
 ويتغنى به الصبيان ، ويتنادر به السمّار ، وسيتقى على الزمن
 أضحوكة الزمن ، وأقسم غير حاث إن هجاءك لأشد على

تزول به عن القلب المهوم ؟
 يسر بأهله الجار المقيم ؟
 علينا والمولى والصميم
 أصاب الناس أم داء قديم ؟
 غراب حوله رخم وبوم
 مقالى للأحيمق يا حلیم
 مقالى لابن آوى يا لئيم
 فمدفوع إل السقم السقيم ؟
 ولم ألم المسىء فمن ألوم ؟

الأسود من وقع السهام في غبش الظلام ، وإنه ليود بجدع الأنف لو تخلى عن بعض ملكه ولم يفوق إليه شعرك المسموم قافيه . لم تندب يا أبا الطيب ؟ لقد أقيمت على أمراء هذا الزمان بهجائك كافوراً درساً لن ينسوه ، فإذا خسرت اليوم أميراً فلقد كسبت أمراء ، إنهم يعطون إذا رغبوا ، ولكنهم إذا رهبوا أعطوا أكثر وأكثر ، وهم يحبون المديح ويشيون عليه ، ولكنهم يبغضون الهجاء ويشيون على دفعه عنهم أضعافاً وأضعافاً ، وقد عرف ذلك قبلك اللثيم بشّار فكان يقول : إن الهجاء أجلب للمال وأرفع لقدر الشاعر من المديح . اذهب الآن أبا الطيب حيث شئت تجد كل أمير يسارع إلى لقائك ، ويحتفل بمقدمك ، ويقبل الأرض بين يديك ، ويفتح لك خزائن ملكه . وأكبر الظن أن سيف الدولة ينتفض منك الآن فرقاً ، ومعز الدولة ببغداد يتحرق لقدومك عليه شوقاً ، وعضد الدولة بفارس يود لو يحملك إليه السحاب . أفق أبا الطيب ، ما هذا الحزن؟ وما هذا الوجوم؟ إن من يراك يظن أنك فقدت عرشاً أو سلّبت سلطاناً ، إنك تملك الكون كله بشعرك ، إن الأرض كلها لك مغدّى ومراح ، وإن من كانت له عبقريتك وعزيمتك يجب أن يسمو فوق الأشخاص ويرتفع فوق الشهوات ، ويطلّ على الناس من سماء مجده كوكباً منيراً — هذا كلام أشبه بالشعريا ابن يوسف لا يثبت على النظر ، ولا يقوى على البحث ، فلقد فقدت بقدمي على العبد كل شيء : فقدت شبابي ، وفقدت آمالي ، وفقدت كرامتي ، ودنّست اسمي

بين الشعراء . إنني نشأت في أول أمرى شاعراً أقرض الشعر فيمن يستحق ومن لا يستحق ، وكانت جوائزى لا تتجاوز بضعة دراهم فلما منحت مرة ديناراً على قصيدة من خير ما تنفّس به الشعر العربى ، توهّمت أنى لمست السماء ، وقطفت عنقود الجوزاء .
 وكم لاقيت عسراً ، وكم لاقيت عنتاً ، وكم قاسيت مسغبة وفقرأ ، وكم أطرقت للذل ، وشربت المر ، وبلبت بقوم هم شر على الحر من سقم على بدن ، ولكنى كنت أزجر النفس إذا سئمت ، وأروضها إذا نفرت ، وأتواضع لجروت من أمدحهم ، وأصدق أكاذيبهم ، وأضحك لنواديرهم الغثة الباردة ، وحيناً بلغت بدر بن عمار توهّمت أنى بلغت القمة ، واقتعدت سنام الشرف .
 — بدر بن عمار الذى تقول فيه ؟

لو كان علمك بالإله مقسماً فى الناس ما بعث الإله رسولا
 لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ فرقان والتوراة والإنجيلا
 لو كان ما تعطيهم من قبل أن تعطيهم لم يعرفوا التأميلا
 لقد أغرقت أبا الطيب وجاوزت النطاق ، وهذا شأنك دائماً إذا رضيت .

— وأغرق أيضاً وأجاوز النطاق إذا سخطت . ظننت أنى بلغت القمة عند بدر بن عمار هذا ، وكان فى عربيداً سكيراً ماجناً ، ولكنه كان جواداً متلاًفاً ، فرضيت بحظى منه ، وقنعت بجنته المحفوفة بالمكاره ، ولكن حسادى تيقظوا حين نمت ، وثاروا حين سكنت ، وأفسدوا بينى وبين الأمير ، فلم أجد

وسيلة إلا أن أفرّ منه وأن أتخذ الليل مركباً ، وأترك عنده آمالاً لم تفتح أزهارها ، ولم تزغب أطيافها ، وكانت هذه الخيبة الأولى ، أما الخيبة الثانية ، وهي التي لا أزال أقرع عليها السن ، وأعض الأنامل ، فهي خصومتي لسيف الدولة وإدلالى عليه أشراً وبطراً ، وجفوتى لما كنت فيه من النعم جنوناً وخرقاً ، ومعاداتى لأهله وحاشيته تجبراً وكبراً ، حتى تضاق بي وحق له أن يضيق ، وتبرم بمقامى وأجدر به أن يتبرم ، فنبت بي حلب وخرجت منها ليلاً كما يخرج اللص المطارد . ولطالما نصح لى راويتى أبو الحسن بن سعيد بالأا أترك سيف الدولة أو أبغى به بديلاً من ملوك الأرض ، وكأنى أسمع الآن نبرات صوته فى أذنى وهو يقول : « إنك الشاعر الذى بعث على رأس هذا القرن لينهض بالعرب ، وليغنى بمآثر العرب ، وليعيد مجد دولة العرب ، ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع من حلب ، ولا ملكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلا سيف الدولة ، إنه الملك الفذ الذى يقارع الروم ، والحرب يا أبا الطيب لن تسير غازية فاتحة مظفرة إلا عن ألحان من الشعر الحماسى ، الذى يلهب الرجدان ، ويقذف الرعب من قلب الجبان » . هكذا كان يقول ابن سعيد فما سمعت له ولا اكرثت بقوله .

— حقاً لقد بلغت ذروة مجدك الشعرى عند سيف الدولة ،

وكنت والله جديراً بأن تقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً
وحقيقاً بأن تقول :

وعندى لك الشرد السائرا ت لا يختصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن من مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا
ولقد صدق ابن سعيد فإن شعرك كان جنداً لسيف الدولة
أقوى من جنده ، وسلاحاً أمضى من سلاحه ، فمن غيرك
كان يستطيع أن يصف الجيش وصاحبه كما قلت ؟
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة
فما يفهم الحدّاث إلا التراجم
وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً
ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافى تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللّبات والنصر قادم

هذا أفق لم يخلق فيه شاعر ، وأوج لم يصدق بجوه طائر .
 — لا نثر أشجاني بالله عليك يا ابن يوسف ، ودع جرح
 قلبي يندمل . فإن الذكرى تزيدهُ ألماً ونغلاً . أين أنا من سيف
 الدولة الآن ومن أيامه النضرات ، ولياليه المشرقات ؟ تركت
 هذا الملك الحر الكريم المجاهد يا ابن يوسف ثم قصدت من ؟
 قصات كافوراً الزنجي الخبيث النتن الكذاب الماكر المحتال ،
 فجزاني الله على كفري بالنعمة ، وأتقي بي في عذاب الجحيم بعد
 أن بطرت على الجنة ، ولقد كان أبو الحسن بن سعيد صادقاً
 أيضاً حين كان يجذبني من كمي ويقول : « احذر يا أبا
 الطيب . فإنه قد يجول بخاطرك أن تذهب إلى مصر ، وإني أربأ
 بك أن تفعل هذا ، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد الأسود ،
 وبالضيعة الشعر . وبالضيعة الأدب . إذا انحدرنا إلى هذه
 الهاوية . » ولكنني لم أطعه ، وساقني الغرور إلى مصر ، وعقدت
 الآمال بالكذاب الفاجر ، وها أنذا أفرّ اليوم منه كما يفر
 الطائر من الفخ مهيض الجناح ممزق الأوصال . كأن حياتي
 أصبحت كلها فراراً ، وكأنه كتب على ألا ألقى ملكاً إلا فاراً
 من ملك ، وألا أودّع ممدوحاً إلا بمثل ما قلت في كافور .
 — تقصد « الدالية » ؟ إنها قصيدة خالدة على الدهر ،
 ولكن دعك من كافور الآن ، ووجه همك إلى ما سيكون من
 أمرك ، وما ستفتتح به لك الأيام .
 — لن أترك كافوراً ، ولن أكفكف عنه سهام شعري ،

وستشرق عليه شمس كل صباح بصاعقة جديدة تهز أعواد
عرشه . ولعلك لا تصدق يا ابن يوسف أنى كنت أقول فيه
شعراً حينما كنت تحاور فراجاً حارس الباب .

— عجب أمرك يا أبا الطيب ، وويل لمن يتلى بلسانك المرء .
— كنت أقول :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أميناً وإخلاقاً وغدراً وخسة
وجبناً ، أشخصاً لحت لى أم مخازيا؟
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة
وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل ، إننى
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا
بما كنت فى سرى به لك هاجيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربّات الخدور البواكيا
— هذه صفعات بالنعال لمحض المداعبة .

— وستلها صفعات وصفعات إن كان فى الحياة متسع ،
لقد أهدر هذا الأسود مجدى الشعرى كما قلت لك آنفاً ، وسوف
أضطر إلى أن أبدأ بصعود السلم من جديد ، فقد كان ملوك

العرب يحيطونني بهالة من الهيبة والإجلال ، ويظنون أنى أحمى
 أنفا ، وأعظم منزلة ، وأسمى كرامة ، من أن أتدلى إلى مدح
 العبد ، وأن أشد رحالى إليه ، وأن أتسلّب من المروعة والرجولة
 فأبيع شعرى بالمال الحبشى دعى فى نسبه دعى فى ملكه ،
 وأن أترك صنابير العرب وأبطالهم يجاهدون فلا يصف وقائعهم
 واصف ، ويبدلون فلا يسجل محامدهم شاعر . فكيف أذهب
 إليهم الآن يا ابن يوسف ؟ إنى إن ذهبت فسوف توصل فى
 وجهى أبوابهم ، وأذاذ مذعوماً عن حضرتهم ، وسيقولون متهانفين
 ساخرين : شاعر أفاق مهين ، لا نفس له ولا كرامة ، لو وجد
 فى عنق كلب طوقاً لمدحه ، ولو رأى فى جيب بغيّ درهماً لخلع
 عليها كل صفات الطهر والعفاف . وماذا نبغى من مديح رجل
 كان يقول للعبد بمصر ؟

ويغنيك عما ينسب الناس أنه إليك تناهى المكرمات وتنسب
 وأى قبيل يستحقك قدره معد بن عدنان فذاك ويعرب
 ويقول فيه :

عند الهمام أبى المسك الذى غرقت

فى جوده مضر الحمراء واليمن
 إننا نريد شاعراً يصدقه الناس ويوقنون أنه لا يقول للمال
 ولكن للزعامة القومية ، والحمية العربية ، والغيرة على الإسلام .
 هكذا سيقول ملوك العرب يا ابن يوسف وهم الحق فيما يقولون ،
 وليس الأمر كما تظن من أن هجائى كافوراً سيخيفهم بل إنه

سيجرهم علىّ ويزهدهم فيّ وفي شعري ، لأنني أصبحت شاعراً
ليس لقوله وزن ، ولا لحكمه تقدير ، شاعراً لا يمدح للحق ولا
يهجو للحق ، وإنما يمدح ليسخر من ممدوحيه ، ويهجو لأنه
يشس منهم ، أو لأنه امتص كل ما لديهم وراح يبحث في
الأفق عن صيد جديد أسمن منهم وأدسم . خبرني بالله يا ابن
يوسف ، بأى وجه ألقى الآن سيف الدولة بن حمدان ، بعد
أن خاصمته وناواته ونافرته ؟ إنني رجل أحمق يا ابن يوسف ،
إذا تملكنتي حمى الغضب قذفت الكلام يميناً وشمالاً ، وبدرت
منى بوادر يحتبسها الحازم الحذر فلا يتحرك بها فوه ، إنهم
يسمونني الشاعر الحكيم ، ولكن يظهر أنني أنثر حكمتي على
الناس وأنسى نفسي ، وأنتى كبائع الجواهر يحلّي صدور
الحسان وهو متسلب عاطل ، وإلا فما الذي كان دعاني بعد أن
بعدت عن سيف الدولة وانقطع ما بيني وبينه ، أن أعرض به
عند مديحي للأسود فأقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها وما قيا
— هذا صحيح ، فقد جعلت كافوراً بحراً ، وجعلت سيف
الدولة ساقية ، وجعلت الزنجي إنسان عين الزمان ، وجعلت
سيف الدولة بياض العين الذي لا غناء له ولا خطر .

— ثم ما هذا العرق اللثيم الذي دفعني عند مدح كافور
إلى أن أقول ؟

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب إلى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب - أتظن أن سيف الدولة يدرك هذا التعريض البعيد ؟

- إن ذهنه فى فهم مراى الشعر ومواقعه أرهف من سيفه .
على أن طيشى وهندى لم يحوجاه إلى كد الفهم وإعمال النظر ، فقد أرسلت هجاءه وهجاء قومه صريحاً فى « نونى » الملعونة التى أقول فيها :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفقكم حتى يعاقبه التنغيص والمئن
أبغد هذا أستطيع أن أمد يداً إلى سيف الدولة أو أن أنزل
له بجوار ؟

- أنا كفيل بأن أكبر أمنية لسيف الدولة أن يراك فى قصره ، وأن يعيد بشعرك عظمة ملكه وصوله سلطانه .

- هذا كلام يا ابن يوسف ، وهبنى أطعتك وذهبت صاغراً إلى سيف الدولة ، فكيف أصل إليه إذا لم أمر ببلاد كافور ، وأظنه اليوم قد ملأ كل الطرق عيوناً على وأرصاداً ؟
- فأين تذهب إذا لم تذهب إلى سيف الدولة ؟

- والله لا أدرى أين أذهب .

- هل خطرت ببالك بغداد ؟

- بغداد؟ ألا تزال تظنها دار الخلافة ، وموئل العربية

بعد أن استولى عليها الديلم ، واستبد بها معز الدولة ؟ إنها لا تجمع اليوم إلا شذآذ الشعراء ، وحثالة المسترزقين بالأدب ، الذين يندق عليهم الوزير المهلبى الماجن ، ويرسلهم على أعدائه ومنافسيه كما ترسل الكلاب المضرة خلف صيد نافر . على أن حتمى الذى سد على طريق العودة إلى سيف الدولة قد أوصد الباب بينى وبين بغداد ، لأننى اندفعت حينما كنت بحضرة سيف الدولة إلى أبيات كلها تعريض بصاحب الأمر ببغداد ، فقد قلت أخاطب سيف الدولة :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا فإنك ماضى الشفرتين صقيل
 إذا كان بعض الناس سيفاً للدولة فى الناس بوقات لها وطبول
 — ليس فى هذا تعريض بمعز الدولة بتاتاً ، وقد عهد الناس
 فى الشعراء وألقوا منهم أنهم إذا مدحوا ملكاً فضلوه على غيره من
 الملوك ، والناس يعرفون هذا ، ويعدونّه من خصائص الشعر
 ومناذحه ، ويعتقدون أن الشاعر لا يقصد مما يقول إلا المبالغة
 والإغراق .

— أنظن هذا ؟

— هذا ما يخطر ببالى كلما قرأت أبياتاً من هذا القبيل .

— وما قولك فى هذين البيتين إذاً وقد قلتهما فى سياق مدح

سيف الدولة ؟

فواعجبا من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتى ما تقلدا ؟

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

— لا يا أبا الطيب ، هذا تحد صريح ، وتشهير بمعز الدولة ، وتصوير مخز لضعفه ، كيف ساغ لك أن تقول مثل هذا ؟ ومالك وللدليم ؟

— لا أدري ، وإنما هو لساني الذي يسوقني إلى المهالك ، رأيت الآن أني لا أستطيع الرحيل إلى بغداد ؟ وماذا بقي من أقطار العرب بعد مصر والشام والعراق ، وقد تركت في كل منها جريمة شعرية تذودني عنها ؟
— بقي الفاطميون بالمغرب .

— للفاطميين عقيدة لا أسيغها ، ولهم فلسفة لا أفهمها ، على أني لا أستطيع الوصول إليهم إلا إذا اخترقت بلاد كافور ، فأسقط هؤلاء من الحساب أيضاً .

— لم تبق إلا فارس ولكني لا أشير بها عليك .
— وأنا لا أشير بها على نفسي ، وإذا لم يبق أمامي بعد أن يشت من الملوك ، وبعد أن سدوا أبوابهم دوني ، إلا أمران لا ثالث لهما: إما أن أنزل من القمة التي صعدت إليها بعد جهد وكد ، وأعود إلى ما كنت عليه في بداية أمري ، فأستجدي بشعري صغار الناس وطغامهم ، أمثال محمد بن زريق الذي وصلني على قصيدة بعشرة دراهم ، فلما عاتبه صديق في قلة الجائزة مع حسن الشعر وجودته ، قال له : « والله ما أدري أكان شعره حسناً أم قبيحاً ؟ ولكني أزيده لأجل خاطرِكَ عشرة دراهم أخرى » . وإما أن أعود إلى الكوفة فأقع في داري ، وأهجر

الناس جملة ، وأقيم بينى وبين الملوك وأشباه الملوك سداً ، فقد كفانى ما لقيت منهم ، وكفاهم ما لقوا منى ، ولى الآن ثروة تكفل الراحة والنعم وهناءة العيش .

— مثلك لا يعمل الأولى ولا يستطيع الثانية ، فلن تمد يدك إلى صغار الناس مستجدياً ، ولن تقبع في دارك خاملاً مترهداً ، إنك الحركة الدائبة يا أبا الطيب ، والطموح الوثاب ، والهمة الغلابة ، والغزم الفصّال ، إن مثلك لا يقبع في داره إلا إذا قبع الفلك الدوّار ، ووقف الليل وتعب النهار ، وسلبت الأسود غرائزها ، والسيوف مقاطعها ، والسيول تهادرها ، والجبال ركانتها وشموخها ، وكيف تهدأ وفي نفسك نار لا تهدأ إلا بالتجوّال ، وفي صدرك أتون يغلى بمضطرب الآمال ؟ وإنك لصادق حقاً حينما تقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبيّ ماله مدى ينتهى نى فى مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربته فيختار أن يكسى دروعاً تهده
وحيماً تقول :

فما لى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شذوق الأراقم؟
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه

إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم فتسقى إذا لم يسقى من لم يزاحم

وحينما تقول :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
 فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم
 مثلك يا أبا الطيب لا يهدأ في داره كما تهدأ العجائز يغزلن
 بأيديهن وينلن بألسنتهن كل عدو وصديق ، لا يا أبا الطيب ،
 إنك لو أردت الاستقرار لغلبتك نفسك على الجلبة والصخب
 والاضطراب والضرب في كل مكان ، إن لسانك لسان شاعر ،
 وقلبك قلب ملك ، وعقلك عقل حكيم ، وعزمك عزم جبار ،
 وهذه إذا اجتمعت ضاقت بها الدنيا وغصت بها الآفاق ،
 فكيف تجمعها دار ؟ وكيف تحبسها حيطان ؟

— هذا هو الذي يؤلني يا ابن يوسف ، وهذا هو الذي
 يخز في نفسي ، لقد رحلت إلى مصر طامعاً في أن أنال من الأسود
 ولاية ألتى عندها رجال آمالي ، وأسكت بها صيحات مطامعي ،
 وأتعلل بها عن مطالب الضخام ، ومقاصدي الجسام ، فضاع
 أمل في العبد وخاب ظني فيه . ولقد كنت على اعتزام الرحيل
 عنه بعد إقامتي سنتين في كنفه تحقق لي فيهما كذبه ومينه
 وخداعه ، وأنه عبقرى في بذل الوعود ، نابغة النوايع في إخلافها .
 كنت على أهبة الخروج من مصر حينذاك ، وكان الخروج
 منها سهلاً فلم يكن كافور قد تشكك في أمرى ، ولم يكن الأبله
 يعتقد أنى عرفت طوايا نفسه ، وأدركت خبثه ومحاله . ولم يعقني
 عن الرحيل في ذلك الحين إلا أمران : أولهما عائشة بنت

رشدین ، فلقد كانت ملكاً كريماً فوق هذه الأرض يا ابن يوسف ، إنها الظهر المصفى والعفاف النقي ، والأدب الساحر والذكاء النادر ، والحنان الذى ينضح الهموم ويبدد الآلام .

— والجمال الذى لم تر الشمس له مثيلاً منذ طلعت الشمس

— والجمال الفاتن يا ابن يوسف ، جمال الروح وجمال الجسم

وجمال الخلق وجمال الابتسامة المشرقة وجمال الحديث الذى

يختلب العقول . إننى رجل جاف خشن الطبع شائك الملمس

يا ابن يوسف ، لم تترك آمالى الضخام فى قلبى مكاناً لحب ولا

موضعاً لصبابة ، ولم تهف نفسى إلى عبث الشباب ومجون

الشباب ، ولقد استقر فى نفسى أنى سهم صوبه الله إلى غرض

هو المجد فيجب ألا يجحد عن المجد ، وصارم بتارلم يعرف فى

يوم من الأيام إلا أن يستل من غمده ثم يعود إلى غمده . ما

استهوانى يوماً جمال ولا اجتذبنى دلال ، ولا فهمت معنى للحب

إلا فيما يقول الشعراء ، وأنت أعلم بأكاذيب الشعراء ، ولكنى

أحسست نحو عائشة بميل عنيف كفكفت من غربه ، وسخرت

منه أول الأمر ، ولكنه عاودنى أعنف مما كان وأشد حينما التقي

بميلها ، واتصل حبله بحبلها ، ولقد كان حبنا عنديراً طاهراً

منزهاً عن دنس الدنيا ، بريئاً من وصمة الشهوات سامياً فوق

الحياة ومآرب الحياة ، لقد كان حباً يشبه حب الملائكة الأطهار

إن كان الملائكة يحبون . فعائشة هى التى حببت إلى البقاء بمصر ،

وهى التى أماطت عنى اليأس وذاذت عنى هواجس الهزيم ،

وهي التي كانت تضمّد تلك الجراح المسمومة التي تركتها في
 سهام الأسود بلطف حديثها ، وفيض حنانها ، وسحر بشاشتها .
 — إن عائشة بهجة مصر وزينة أترابها ، وهي أديبة كاتبة
 شاعرة ، وهي فوق ما وصفت جمالا وعفافاً وطهرًا ، ومثلها
 جدير بحب رجل مثلك يا أبا الطيب ، وما الأمر الثاني الذي
 حملك على إطالة المقام بالفسطاط ؟

— حملني على البقاء بالفسطاط تلك الصلة الوثيقة التي
 عقدتها مع أبي شجاع فاتك ، ولعلني اليوم في حل من أن أذيع
 سرّاً لأصدق أصدقائي ، فقد انتهى الأمر ، ومات فاتك وماتت
 معه آمالي ودفنت مطامحي .

— دفنت مطامحك ؟ ماذا تريد بهذا ؟

— انتظر يا ابن يوسف ، لم تكن الصلة بيني وبين فاتك
 صلة شاعر بقائد ، ولكنها كانت أسمى من ذلك وأعظم شأنًا ،
 كان فاتك يبغض كافورًا وكان كافور يبغضه ويخشى بطشه
 ويخاف منه على ملكه ، فأراد فاتك أن يبتعد عن الأسود فأقام
 بالفيوم ، وقد اتصلت به في الصحراء بالقرب من « كوم
 أو شيم » مرّات ، وكثيراً ما دار الحديث حول كافور وظلمه
 واغتصابه الملك ، وعرف مني فاتك بغضه للأسود وما يضطرب
 في نفس من آمال ، ولح شدة عجيبي من أن يحكم مصر عبد
 حبشي والدنيا تزخر بسادات العرب وصناديدهم ، وكان رجلا
 شهماً ذكياً محبباً للعرب مفتوناً بعظمة تاريخهم وجلال ماضيهم ،

فقال : اسمع يا أبا الطيب فإن لي رأياً سهلاً تنفيذه إذا حاطته الحكمة وصاله الكتمان. قلت : هات أيها القائد ، فقال : إنني عبد رومي رباني الإخشيد ، وليس لي في الملك مطمع ولا في عظمة السلطان أرب ، ولكني أبغض الأسود كما تبغضه ، وأرى أنه مغتصب ملكاً لا يسمو لمثله مثله ، وأن غيره أولى به وأحفظ له وأقوى عليه . وابن سيدنا « على » الذي أمات كافر نفسه ، وحنق فيه كل همة ، وأطفأ وميض كل فضيلة ، أصبح أضعف من ذات خمار ، وأوهى من القصة المرضوضة ، لا يصلح أن يكون ملكاً ، ولا يصلح أن يكون رجلاً . ورأى حينما تسنح الفرصة أن أجمع قبائل العرب الضاربة بالفيوم ، وأن أكون منها جيشاً لهاماً نرحف به على الفسطاط ، ونقبض على كافور ونريح الدنيا من اسمه ، ثم تكون ولاية مصر شركة بيننا على السواء . ما رأيك يا أبا الطيب ؟ فدهشت وبهت وكادت تدركني غشية ، لقد كانت مفاجأة عجيبة يا ابن يوسف . أكون ملكاً لمصر ؟ أنا الذي كان يطمع في ولاية صغيرة من العبد ؟ أكون ملكاً لمصر ، و أدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب ؟ هذا أشبه بالأحلام ، وأدخل في باب الأوهام . إن مطامحي لم تصل بي إلى هذا ، ولكن ماذا أعمل والخطة واضحة ، والغاية محققة ؟ فبلعت ريقى ثم قلت : ولكن لكافور أيها القائد جيشاً بالفسطاط شديد المراس يدبره قواد عركتهم المواقع وعجمت عودهم الحروب . فأسرع وقال : إنني سأحتال على الرحيل عن

الفيوم بعد أن أكون قد اتفقت مع مشايخ قبائلها ، وسوف أقوم بالفسطاط حيناً أستطيع فيه لإغراء قواد كافور وجنوده ، وأكثرهم ساخط عليه متبرم بحكمه . وتم الاتفاق والتعاهد على كل هذا يا ابن يوسف ، وبقيت بمصر أنتظر الواقعة التي ليس لوقعها كاذبة ، وقدم فاتك إلى الفسطاط وأخبرني أن المؤامرة تمت على خير الوجوه وأدقها إحكاماً ، وأنه لم يبق إلا أن يشعل النار في الحطب ، ولكن الموت عاجله قبل أن يمد يده إلى الزناد ، فخابت آمالي وتمزقت مطامعي وطار مع الرياح أحلامي . رأيت يا ابن يوسف كيف كان حزني على فاتك شديداً ؟ رأيت كيف ضاقت في الحياة بعده ؟ رأيت كيف اجتويت مصر وأهلها وخرجت منها محطم النفس مهيبض الجناح ؟ — لم أعرف كل هذا ، ولكن يظهر أن كافوراً كان عنده كثير منه .

- نعم فإن جواسيسه يكادون يقرعون ما في الصدور .
- إذا كنت تطمع في الملك يا أبا محسد ! ولكني لم أر في التاريخ شاعراً أحسن القيام على الملك ، وأول هؤلاء امرؤ القيس ذلك الملك الضليل ، ثم الوليد بن يزيد الخليفة الأموي ، ثم عبد الله بن المعتز العباسي .
- هؤلاء كانوا شعراء ولم تكن لهم نفوس الملوك وعزائمهم .
- وما كاد المتنبى يتم قولته حتى شاهد هو وصاحبه غباراً خلفهما ، وسبعا وقع سنابك خيل تعدو نحوهما عدواً ، فذهل

المتنبى وصاح أدركنا الأسود ! أدركنا كافور ! يا لحية الرجاء
ويا لضبيعة الأمل ! إن هؤلاء بعض جنوده يا ابن يوسف . كنا
ظننا أننا نجونا من أظفار الأسد فإذا هو يرسل علينا ذئابه !
سأب عليهم وأرؤى منهم صارمى . فصاح به الخزاعى :

— اهدأ أبا الطيب ولا تسرع إلى الاحتكام إلى السيف .
ومضى وقت قصير فقرب منهما ثلاثة فرسان قد أجهدوا خيلهم
شداً وعتقاً ، وصاح بهما كبيرهم فوقفا ثم قال فى صوت الأمر
الظافر :

— ارجعا إلى الفسطاط . فأجابه الخزاعى فى رزاة واستخفاف
متكلف :

— بأمر من نرجع إلى الفسطاط ؟ بامرك أنت ؟

— بأمر الوالى .

— وماذا يريد منا الوالى ؟

— يريد المال الذى سرقناه أول من أمس من دار إسحاق

الجوهري ، فقد ثبت لنا أن مسافر بن طلحة هو الذى أغار على
دار اليهودى واستولى على جميع جواهره وبعث بها مع فارسين
ليبيعاها بالشام . وقد جعل اليهودى ثلث الجواهر أجراً لمن يردها
إليه . ففقهه الخزاعى حتى تكادت تسقط عمامته ، وقال :

— لله دركم أيها الحراس ! ما أشد ذكاءكم ! وما أبصركم

باقتناص اللصوص ! هل ترون فى وجوهنا وفى ثيابنا وفى مراكبنا
ما يوحى بأننا من اللصوص ؟ إنكم أيها السادة الكرام تضيعون

وقتكم معنا ، فإذا كانت لكم رغبة حافزة للقبض على لصوكم فابحثوا عنهم في مكان آخر .

— أنتم طلبية الوالى . فصاح المتنبى :

— إن الوالى أيها الأيلة لا يطلب فارسين وكفى ، وإنما يطلب لصين . ثم كشف عباءته فظهر تحتها منطقة من النصار المرصع بالجواهر ، وبدا سيفه وقد كان مقبضه ونعله من خالص الذهب ، وقال :

— أهذه ثياب لص ؟ أهذه عدّة لص ؟ فهمس أحد الثلاثة فى أذن كبيرهم قائلاً :

— ارجع أبا على ولا تكثر مع السيدين ، فإنى أخشى أن يكونا من كبار رجال الدولة . فتراجع أبو على وقال :

— أرجو أن يعذرني السيدان إذا كنت خشن القول عنيماً فى البحث ، فأنما تعرفان ما وصلت إليه حال الفسطاط من جرأة اللصوص واستهانتهم بالحكام .

فقال الخزاعى :

— لا تثرىب عليك يا رجل ، وإنما الذى أغضبنا أننا كنا نظن أننا أكرم عند الناس وعند أنفسنا من أن يخلطنا مثلك بطائفة اللصوص .

— أسألك العفو يا سيدى ، وأغلب ظنى أن يكون اللصوص قد سلكوا طريقاً أخرى . ثم أمر صاحبيه أن يلويا عنانى جواديهما ، وعاد ثلاثهم أدراجهم يملئون جنبات الأفق عثيراً

وقتماً . وتنفّس الخزاعي الصعداء ، وابتمس المتنبى ابتسامة
ساخرة ، وكانا قد قاربا بلبيس فزجرا جواديهما حتى بلغاها بعد
ساعة أو بعض ساعة ، ورأيا أبناء الخزاعي ورجاله ومحسداً
وعبيده ينتظرونهم عند ظاهر المدينة ، فحيا المتنبى ابنه وخادمه
مسعوداً بنظرة عابرة ، ثم شكر الخزاعي على حسن بلائه وعظيم
ما أسدى في خدمته من عناء ومخاطرة ، فسأله الخزاعي عن
الطريق التي سيسلكها فقال :

— سأحرق الصحراء ، وسأسلك المفاوز المجاهيل التي لا
يصل إليها جواسيس العبد ، وسأرد المناهل الأواجن ، وأنزل
المنازل التي لا يطرقها إلا أهلها .
— إلى بغداد ؟

— إلى الكوفة ، إلى منبت عظامي ومسرح صباى . منها
خلقناكم وفيها نعيدكم .
— ومنها نخرجكم تارة أخرى !

— ما أظن يا ابن يوسف . ثم التفت فإذا غلام فاره ناضر
العود جميل الزى وسيم الطلعة مشرق الجبين ، يتقدم نحوه ويمد
يداً لتحيته ، فحقق فيه النظر ثم صاح :

— سيدتى عائشة ! ماذا جاء بك يا مولاتى ؟ وما الذى
حملك على اقتحام المخاطر واتخاذ هذا الزى الغريب ؟

— حملنى على كل ذلك أن أراك وأن أودعك يا أبا الطيب ،
ثم تناثرت الدموع من عينيها كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم

سمطه، ومضت تقول: إذا جفتك مصر يا أبا الطيب وضاق بك رحابها ، فإن فتاة مصرية معجبة بك مفتونة بفنك تكن لك ودًا أصنى من سماء مصر ، وتفتح لك قلباً أوسع من فسيحات رحابها. إنها تمنحك حباً لو كان في عاصفة لعادت نسيمًا ، ولو مازج الملح الأجاج لصار تسنيمًا ، ولو لمس الهجير لحسده الأصيل، أو خالط الليل ما شكاً طوله محب أو عليل . دعني أحمل أوزار قومي يا أبا الطيب ، وأبدلك بعقوقهم إخلاصاً ، وبغدرهم وفاءً ، وبإهمالمهم إجلالاً وتقديراً. لقد كان حبنا قدسياً طاهراً كأنه حب الغمام ، وكانت نفوسنا صافية كصفاء الملائكة ، وكان ودنا روحانياً نقياً كنعناء آلء الفردوس. والآن يا أبا الطيب أن نفترق، وقديطوبنا الموت قبل أن نلتقي ، ولكنى سأراك في كل لحظة وسأستمع لك في شعرك كلما رددت قصائدك الخوالد ، وأبياتك الأوابد ، وسأناديك في اليقظة والمنام ، وسأهتف باسمك كلما عصفت بي الآلام . فزفر المتنبى وربت يدها في حنان ورفق وقال :

— إن هذه الحياة يا عائشة أضيقت من أن تتسع لمثل حبنا الذى لا تحده نهاية ، فإذا ضاقت بنا الأولى فإن لنا فى الأخرى خلوداً ونعماً وظلاً ظليلاً وعيشاً لا يكدره علينا مكدر .

وما تكاد يستمر فى الحديث حتى صاح مسعود : الرحيل يا سيدى الرحيل .

— هل أعددتى الزاد والماء ؟

— نعم يا سيدى . فحيا المتنبى الخزاعى ، ثم حيا عائشة

حزينا كاسف البال ، وهو يقول :

لعينيك ما يلتى الفؤاد وما لتى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولم أركأ لألحاظ يوم رحيلهم
عشية يعدونا عن النظر البكى
وللحب ما لم يبق منى وما بقى
ولكن من يبصر جفونك يعشق
بعث بكل القتل من كل مشفق
وعن لذة التوديع خوف التفرق

مخاطرة

كان الوقت أصيبلا ، وكان النسيم خائراً ضعيف المنة يمر بأطراف النخيل فيهتر له سعفها في تكبر وسخرية ، وكانت الشمس ترسل أشعتها صنفاً برآقة فوق الرمال الواهنة المجهودة ، بعد أن طال بها النهار واشتد قيظله واشتغل هجيرها اللّواح . وسار مع المتنبي عشرون بعيراً لحمل الزاد والماء ، وخمسة عشر جواداً يمتطيها خدمه وعبيده وقد اكتملت لهم عدتهم من السيوف والرماح ، وتقدم المتنبي الركب وخلفه محسد ومسعود ، وكان ينظر إلى الأفق البعيد حيران ذاهلاً متجهماً الوجه حزين النفس ، يردد الحشرات ، ويرسل الزفرات .

لم يكن حديث عهد بالصحراء وجفوة الصحراء ، ولم يكن قليل الخبرة بحياة شذاذ الأعراب وصعاليكهم الضارين في أنحائها ومالهم من أخلاق وعادات ، وما يتصفون به من ختل وتلصص واستباحة للأموال ، فإن لصعاليك الصحراء قوانين وشرائع غير ما تعارف عليه الناس من قوانين وشرائع ، ومن العجيب أن هذه الشرائع كثيراً ما تكون متضاربة متناقضة ، فهم يقتتلون لأوهن سبب ، ويصفحون لأوهن سبب ، ويغتصبون الأموال حراماً ليعثروها في الكرم والضيافة حلالاً ، وقد يحمون الجراد ولا يحمون بني الإنسان ، فإدراكهم لمعنى الشرف إدراك

غريب كثيراً ما يؤدي بهم إلى فعل كل ما يخالف قواعد الشرف . عرف المتنبي حياة الصحراء وأخلاق الأعراب في طليعة صباه ، حينما كان يتنقل بين القبائل في بادية الكوفة ليتلقى اللغة من أفواه رجالها ، ثم عرف الصحراء حينما أقام طويلاً في بادية السماوة بالشام بين بني كلاب ، لهذا لم يكن على الصحراء دخيلاً ، ولم يكن عن عادات الأعراب بعيداً .

سار الركب في هذا البحر المائج الخضم بالرمال ، وذلك التيه الذي يضل فيه الحرّيت ويزوغ البصر ، وفي تلك الموماة التي يقول في مثلها أبو الطيب : « يهماء تكذب فيها العين والأذن » . وقد طمست الأعلام ، وانمحت الصور ، وزالت الآثار ، ولم يبق إلا أن يعتمد الضارب فيها على الشمس أو بعض نجوم السماء . فضاء فسيح كأنه أمل الأحقق ، وأرض مجدبة كأنها كف الشحيح ، وصخر أصم كأنه قلب اللثيم ، ورمال صفر كأنها بطون الحيات . إنها أرض من الأحلام وجو من الأوهام ، جفت فيها الحياة وجفتها الحياة ، فلا نبات ولا عشب ، ولا شوك ولا قتاد ، لا يمر بها طير إلا خائفاً عابراً ، ولا وحش إلا منطلقاً واجفاً ، كأنها نسيت عند خلق الطين والماء فليس بها أثر للطين ولا قطرة من الماء . تبدو الكتبان بها وسنى مكدودة تمد رءوسها إلى السماء كأنها تتضرع طالبة الفرار ، وتبدو الوهاد بها مظلمة مخيفة كأنها أشداق الأسود . جفوة وشقاء ومحول وجمود وقسوة ، ثم صمت ورعب وسكون هو سكون الموت ، ووحشة القبور .

سار المتنبى يقدم ركبه في هذا التيه ، ولم يبق في صدره من
الآمال الضخام إلا أمل واحد ضئيل خافت هو أن يعيش ،
هو أن يستطيع أن يخترق هذه الصحراء وفيه ذماء من حياة ،
هو أن ينجو بجلده من هذا الخطر الداهم والبلاء الواقع ، لم يبق
من مطامعه أن يكون أميراً أو ملكاً ، ولم يبق من آماله أن يكبت
أعداءه ويدوس بقدمه فوق آناهم ، ولم يبق من وساوس نفسه
أن يترك في الدنيا « دويماً كأنما تداول سمع المرء أمّله العشر »
طارت كل هذه الأحلام أمام عظمة الصحراء ومخاوفها ، لأن
الصحراء كالبحر الهائج المضطرب ترتعد لهوله الحياة ، ويتوارى
عنده الأمل ، وتخشع النفوس .

وبدا القمر موشكاً على الاكتمال فلف الصحراء في غلالة
من نور ، وكان المتنبى فوق صهوة جواده يرمى طرفه هنا وهناك
كما ينظر الصقر من فنته إلى ما حوله من فضاء فسيح ، وكان
يهمهم بكلمات تقطعها زفرة حيناً ، وزججرة أحياناً ، فقرب
منه محسد وقال :

— ألا نخط الرحال هنا يا أباي فقد انتصف الليل وكلت
الرواحل ؟

— إن سير الليل أروح للعبيد والدواب ، وكلما بعدنا عن
الفسطاط زال الحذر وسرنا في أمن واطمئنان .

— إننا نسير في طريق لم تطأها قدم مسافر ، فن أين ليد
كافور أن تمتد إلينا ؟

— إنني أشعر بشيء من الراحة كلما بعدت الشقة بيني وبين الأسود ، لأنني أريد أن أنسى أني رحلت إلى مصر وأني قصدت الأسود ، ويخيل إلى أن بين المسافات والفكر اتصالاً ، وأنه كلما شسعت المسافات بينك وبين شيء قل تفكيرك فيه .
— اترك كافوراً يا أبي لشأنه ، فأنت أعظم وأنبى من أن تحقد على الرجل أو تلقى لمثله بالا .

— لن يفلت من يدي هذا الوغد الذي جعل مني أضحوكة للشعراء والأمراء . إن أباك يا محمد إذا مسّت كبرياؤه فقد مس منه مكان السم في الأفعى . انقل عني يا محمد وأذع :
وأسود أما القلب منه فضيق نخيب ، وأما بطنه فرحيب إذا ما عدمت الأصل والعقل والندي

فما حياة في جنابك طيب

— يلوح لي أنك تخفف بهجائه عن نفسك بعض ما تجده .
— نعم يا بني إن هجاءه يروّح عن نفسي ، ولا بد للمصدر أن ينفث ، وللحزين أن يرسل الدموع .

— حقاً لقد أساء إليك ، وأغرى بك حثالة الشعراء ، ومسترزقة العلماء . كنت منذ شهر أسير بنخطة مسجد عبد الله مع الشريف إبراهيم العلوي ، فقابلنا الشيخ المعتوه الموسوس محمد بن موسى الذي يلقبونه بسبيويه ، وكان على حمارة ، وهو لا ينزل عنه لأمير أو عظيم ، فسلم عليه الشريف ، ولما عرفه بي صاح : أنت ابن المتنبي ! أهلاً أهلاً يا بن شاعر الغبراء !

لله أبوك فإنه يأتي في شعره بالعجب العجاب . بالله سل أباك
يا بني عن قوله في كافور :

يقول له القيام على الرعوس وبذل المكرمات من النفوس
أكان يريد حقاً أن يقف للأستاذ على رأسه ، وأن يطلق
رجليه في الهواء ؟ يا له من مبتكر بارع ! ويا لها من صورة
بديعة ! ويا لها من مهارة فائقة لا يستطيع أن يباريه فيها إلا
« الأزعر الطمطماني » أعظم مضحك بالمدينة ! واجتمع الناس
حوله لارتفاع صوته وكثرة إشارات ، ثم انطلق يقول : كان
أبوك بالأمس خيراً منه اليوم حين قال لأبي الحسين المري :

خير أعضائنا الرعوس ولكن فضلها بقصدك الأقدام
ثم هلم إلى يا بني هلم ! أألانس يقول أبوك الشعر أم للجن ؟
أيقوله ليفهمه الناس أم ليتمتموا به على رعوس المرضى والمصروعين
لطرده المردة والشياطين ؟ أشهد إني حللت الطلاسم ، وفككت
الألغاز ، وتعلمت لغة الجن ، وقرأت خطوط الفراعنة ، ولكني
لم أفهم قول أبيك :

لا تجزني بضنني بي بعدها بقر

تجري دموعي مسكوباً بمسكوب

لقد كنا نشمثر من أن يتغزل الشعراء في الغزلان حتى جاء
أبولك فتغزل في البقر ! ثم إني أتحدى السيد الشريف ، وهو
ابن أفصح قريش ، أن يدلني على معنى لهذا الكلام الخنفساري !
فخجل الشريف ، وزاد في خجله ازدحام الناس وانتصار بعض

طلاب العلم لشيخهم الموسوس ، فقال : إن في البيت خفاء من غير شك ، ولكن الشاعر يسأل الله ألا تجزيه الحسان بالضمي الذي حل به ضني يحل بهن ، كما جزين دمعته المسكوب بدمع سكبته لفراقه . فصاح المجنون : الله الله ! سبحان الفتاح العلم ! سبحان المنعم المتفضل واهب القوى والقدر ! ألا قال كما يقول الناس :

لا قدر الله أن تضني ضنای بها كما جزني مسكوباً بمسكوب
على أن المعنى بعد كل هذا ضئيل سخيف ، لو رأيت
ملقى على قارعة الطريق ما مددت يدي لالتقاطه . ثم انحنى
بعصاه على حماره وهو يصيح : أسرع بنا أيها الحمار قبل أن
يفسد ذوقى وذوقك !

وما كاد يتم محمد حديثه حتى زفر المنبي وقال في كبر
وأنفه : هؤلاء يا بني لا يفهمون معنى الشعر ، فإن من أولى
خصائصه وأكبر ما يدفع فيه إلى اللذة والاستمتاع ، أن يكون
خفياً تضطرب في إدراكه العقول .

واستمر الركب يقطع البيداء ، يقيل وقت الظهيرة ، ويعرس
في أخريات الليل ، حتى رأى العبيد نحيلات عن بعد فصاحوا
في جذل وابتهاج : لقد بلغنا منابت العشب ! سرى بعد
قليل الزرع والماء ! وسنجد بعد قليل نخلا نلجأ إلى ظلها
الظليل ! ولقد كانوا في تفاؤلهم صادقين ، فقد بلغوا ماء يعرف
« بنخل » ولكنهم ما كادوا يصلون إليه ويحمدون عاقبه السرى ،

حتى وجدوا عنده شذمة من لصوص الأعراب تسقى خيلها ،
وما إن رأتهم حتى وثبت عليهم تبغى انتهاب ما معهم من خيل
وإبل وغنائم ، فقاتلهم المتنبي وعبيده وأثنخوا فيهم ، فسقط
من سقط منهم ، وفر الباقون يلتمسون النجاة . وفرح العبيد
بانتصارهم ، واندفعوا إلى الماء يشربون ويسقون دوابهم ويغمسون
رءوسهم فيه حباً له وشوقاً إليه ، ثم أخذوا يرقصون ويغنون على
طريقتهم في الرقص والغناء .

ونزل أبو الطيب بنخل ضيفاً على أبي النجم ملاعب الأسته ،
وهو كبير الأعراب في هذه الحلة ، فأحسن ضيافته ، وأكرم
مثواه . وبعد أيام نال فيها العبيد شيئاً من الراحة أمر المتنبي
بالمسير وشد الرحال ، فعادت الخيل إلى خبيها ، والإبل إلى
وخيدها ، وكان السير مملاً مضيئاً ، والطريق وعراً موحشاً ، لا
ترى فيه العيون إلا هياكل بشرية لقوم قتلهم ظمأ الصحراء ،
أو إبل قضى عليها طول السفار .

ومضت هكذا أيام وأيام نال فيها طول الطريق وقلّة الزاد من
العبيد ، فضويت أجسامهم ، ونفذ صبرهم ، وشكست أخلاقهم
وبدت فيهم روح السخط والتمرد ، وكان يسيطر عليهم ويتزعم
جماعتهم عبدان ، هما : مجاهد وشعلان ، وكانا أقواهم نفساً ،
وأشدهم عزمًا ، وأمضاهم ذكاء وتديباً ، وأمهرهم لعباً بسيف
أو تحكماً في جواد .

وأحس المتنبي بوادر هذا العصيان ، فأمر ابنه ومسعوداً أن

يراقبا العبيد عند ما يخلون إلى أنفسهم .
 واجتمع العبيد في معرّسهم ذات ليلة ، وأخذوا يشكون
 ويتذمرون ، وكان مسعود مختفياً خلف بعير يسمع ولا تراه
 عين ، فقال مجاهد .

— إن هذا المتنبئ الأخرق يسوقنا إلى الدمار . فأجابه شعلان
 — لقد ضلّ الطريق ما في ذلك شك ، ولن تكون نهايتنا
 إلا مثل تلك العظام التي نراها في الطريق ، والتي كان لها
 لحوم فأكلتها الصحراء ، والعجيب أني كلما نصحت لعبده
 مسعود أن ننيخ الإبل للراحة ، وأن نبحت عن دليل يرشدنا إلى
 مكان ينقذنا من هذا التيه ، ونجد فيه ما تقتات به الدواب ،
 عبس في وجهي وقال في تيه وصلف : أتظن أنك أعلم من سيدي
 بمجاهل الصحراء ومناهلها ؟ إنك لو نبست بشيء من هذا الكلام
 أمامه لجهلك طعاماً لسيفه . فزجر العبيد في سخط واستنكار وهمسوا :
 -- ماذا نفعل إذآ ونحن أمام موت محقق ؟ فقال مجاهد :
 — يجب أن نشور ونحن والحمد لله جمع يبلغ الخمسة
 والثلاثين ، ولا نعجز عن أن نقتله ونقتل ابنه وعبده . فقال
 أحد العبيد في صوت خافت :

— ثم نأخذ جميع ما جمعه من أموال مصر وكنوزها ،
 فقال مجاهد :

— وماذا تنفع الكنوز في هذه الصحراء الجرداء الماحلة ؟
 فأجاب شعلان :

— إني أعرف طريق العدة إلى نخل .
 — إذاً تكون الثورة غداً حيناً يأمرنا هذا المخاطر المجنون بالرحيل .

وسكت القوم وهومت رءوسهم للنوم ، وانطلق مسعود إلى سيده فنفض إليه جملة الخبر ، فأطرق المتنبى طويلاً ثم رفع رأسه وقال : سنذهب معاً حيناً يسيطر النوم على هؤلاء الكلاب ونستولى على ما نستطيع من سيوفهم ، فإن العقرب لا تلتسع إذا قطعت حمتها . اذهب غنى الآن يا مسعود وأيقظ محسداً وسأكون معكما بعد قليل .

ومرّ من الليل ساعة ، فغادر المتنبى رحله وقابل ابنه ومسعوداً ، وانسلوا تحت ستار الظلام إلى معرس العبيد فأروهم نياماً ، وقد ألقى كل سائف منهم سيفه إلى جنبه ، فمشوا بينهم في هدوء لا يسمع له ركر ولا تحس نامة ، وندلوا سيوفهم واحداً بعد واحد . والعبيد في سبات كاد يجعله السغب والكلال موتاً . وتبلىج ضوء الصباح ، وتيقظ العبيد ففتقدوا سيوفهم فلم يجدوها فذعروا أول الأمر ، ثم عرفوا أن المتنبى شعر بمكيدتهم فسلمهم سلاحهم وهم رقاد ، فقال مجاهد :

— لقد سرق سيدنا الأحمق أسلحتنا ونحن نيام ، ولكن هذا لن ينجيه من أيدينا ، إن بضعة رجال منا يكفون للقبض عليه ولو كان متسلحاً بسيف الهند كلها . هلموا إلى الثورة أيها الشجعان !

فقام العبيد وكان المتنبي قد أخذ لهم الأهبة ، فما كادوا يصلون إليه وإلى من معه حتى أركضوا فيهم جيادهم ، وأخذوا يضربون بالسيف يميناً وشمالاً ، فهت العبيد وذعروا وتملكهم الوهل ، وفر بعضهم ، وقبض أبو الطيب على مجاهد وشعلان وبعض الثوار ، وأمر أن يقيدوا وأن يضربوا بالسياط حتى تهرأ أجسادهم ، وتضرع له العبيد وتذللوا وأعلنوا التوبة ، وشفع فيهم محمد فأطلقهم فانكبوا على يديه يقبلونها خاضعين آسفين .

ولم تمض أيام حتى بلغ المتنبي « حَسَمَى » وهي أرض طيبة كثيرة الماء تحيط بها الجبال الشاخحة ، وينبت بها كثير من النبات والفاكهة ، فنزل بها القوم بعد أن نهكهم الصحراء وشفهم طول السفر وبعد الطريق . وكان بنو فزارة يقيمون بحسمى ، وكان لأبي الطيب صلة قديمة بأبيهم حسان بن حكمة ، فنزل على جاره حتى لا يجر على صديقه غضب كافور إذا علم بتزوله عنده ، وكان هذا الجار يدعى « وردان بن ربيعة الطائي » وكان لثيماً خسيس الطبع جشعاً خائناً ، فما كاد يرى حمول المتنبي وذخائره حتى وسوس إليه الجشع أن ينهب منها ما يستطيع ، وبأى وسيلة يستطيع ، فأظهر الحب والمودة لعبيد أبي الطيب ، وكان يدعوهم إلى خبائه ويدفع زوجته وكانت ذات ملاحظة إلى مجالستهم ومجالمتهم وإغرائهم ، وتمكن بهذه الذرائع الخبيثة من دفع العبيد إلى استراق كثير من أموال المتنبي وأمتعته ، وكان للمتنبي سيف مقبضه ونعله من الذهب الخالص ، فطمع

فيه وردان وزين لشعلان سرقته ، فتربص ذات ليلة حتى علم أن القوم أدركهم النعاس ، ومشي في رفق وحذر ثم استرق السيف من الرجل ، ودفعه إلى مجاهد وأمره أن يركب ويسرع إلى وردان ، ثم همّ بأن يسرق فرس المتنبي ليفر به ، ولكن المتنبي رآه وهو يحاول حل رسن الفرس فزجره فلم يزدجر وبدأ في وجهه الغدر والعدا ، فضرب وجهه بالسيف فشطره شطرين ، وخرّ العبد صريعاً ، فقال :

لئن تك طيئاً كانت لثاماً فالأمها ربيعة أو بنوه
مرنا منه في حسمى بعبد يمج اللؤم منخره وفوه
أشدّ بعرضه عنى عيىدى فأتلفهم وما لى أتلفوه
فإن شقيت بأيديهم جياىدى لقد شقيت بمنصلى الوجوه
وأسرع المتنبي بالرحيل عن حسمى بعد أن أقام بها شهراً ، وزادت وساوسه واضطربت نفسه حينما اطلع على كتاب لكافور يطلب فيه إلى رؤساء القبائل النازلين بالصحراء القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية ، بعد أن أغراهم بالعتاء الجرم والمال الكثير .

وكانت للمتنبي ثقة بفتى من بنى فزارة يسمى « فليته بن محمد » فسأله أن يصحبه في الطريق ، وأن ينحرف به عن المسالك التي يطرقها العاؤون وراه المتعقبون لأثره .

وانطلق الركب بين الحذر والوجل ، وأرسل المتنبي نظره إلى نواحي الأفق البعيد خائفاً مدعوراً ، « إذا رأى غير شيء

ظنه رجلاً » كما يقول ، وما مر بالقوم يومان حتى صاح فليته ذات صباح ، وكان مطرح النظر ، يرى بعيني زرقاء النمامة :
 لاني أرى عن بعد سرباً من الخيل يسير إلى جانب الجبل ،
 وأحسب فرسانه من أعوان كافور . فمد المتني عنقه ، وحدق بعينه وقال : صدقت يا ابن محمد . يجب أن نخنق جميعاً وراء هذه الأكمة وهي مناجد قريب . ومال بجواده نحوها فسار خلفه العبيد وهم لا يعلمون من الأمر شيئاً ، ووقف هو ومن معه خلف الأكمة ساعتين أو أكثر ، ثم أرسل مسعوداً ليكشف له أمر الفرسان فلم يجد لهم أثراً . فقال فليته : أغلب الظن أنهم عادوا من حيث أتوا بعد أن يشسوا من الطلب . وزفر المتني وقال : ألا يزال هذا الأسود يطلبنى ويسأل غني كل رملة من رمال الصحراء ؟ تعس العبد . والله لن ينال مني ظلا .

قطعت بسيري كل يهماء مفزع
 وثلمت سيق في رعوس وأدرع
 وفارقت مصرا والأسود عينه
 ألم يفهم الأفعى مقالى وأنى
 ولا أرعوى إلا إلى من يودنى
 أبا التن ، قد قيدتني بمواعد
 وقدرت من فرط الجهالة أننى
 وأترك سيف الدولة الملك الرضا
 فتى بحره عذب ، ومقصده غنى
 وجبت بخيلي كل بيداء بلقع
 وحطمت رمحي في نحور وأضلع
 حذار مسيري تسهل بأدمع
 أفارق من ألقى بقلب مشيع ؟
 ولا يطبيني منزل غير ممرع
 مخافة نظم للفؤاد مروع
 أقم على كذب رصيف مصنع
 كريم الحما أروعا وابن أروع
 ومرتع مرعى جوده خير مرتع

ورحل القوم بعد أن هدأت أنفاس دوابهم فواصلوا السير حتى وردوا « البويرة » بعد ثلاث ليال ، فأقاموا بها يومين ثم رحلوا عنها يغذون السير ويطوون المراحل إلى أن نزلوا « بسيطة » وهي أرض تقرب من الكوفة ، فانزاح الهم قليلا عن صدر أبي الطيب ، وابتهج العبيد بقرب انتهاء الصحراء ، وأخذوا يرقصون وينغمون أصواتاً يظنونها غناء وتطريباً ، وقد زاغت أبصارهم من وهج الصحراء وشدة قيظها ، فرأى بعضهم نعمة فظنها نخلة ، ورأى ثوراً فظنه منارة مسجد .

ثم أمر أبو الطيب بشد الرحال فانطلق الركب ، وما زال ينتقل من حلة إلى حلة ، ومن منهل إلى منهل ، حتى بدت له معالم الكوفة بماذنها وقيابها ، فكبر القوم وهللوا ، وصاح محمد : هذه هي الكوفة ! هنا ولد أعظم شاعر ! هنا ولد شاعر العرب الذي تفتحت له سماوات الوحي ، وتدانى له قطوف الإلهام ! لقد قهرنا الصحراء وأذلنا صعابها وشققنا منها قلباً لم يشقه منسّم ولا حافر ، وألقينا على كافور درساً لن ينساه ، وعلمناه أن أظافره وإن طالت لن تمس للبطل العربي الهمام شسعاً !

ودخل المتنبي الكوفة بعد أن قضى في الصحراء ثلاثة أشهر ، وبعد أن نجا من أهوالها كمن ينجو من ماضغي أسد أو يقذف به الهم إلى الساحل بعد صراع عنيف . دخل الكوفة شامخ الرأس تياًهاً وهو يقول :

فدى كل ماشية الهيدى
 ر إما لهذا وإما لذا
 ومن بالعواصم أنى الفتى !
 وأنى عتوت على من عتا
 ولكنه ضحك كالبكى ؟
 يدرّس أنساب أهل العلا
 يقال له : أنت بدر الدجى
 رأى غيره منه ما لا يرى

ألا كل ماشية الخيزلى
 ضربت بها التيه ضرب القما
 لتعلم مصر ومن بالعراق
 وأنى وفيت ، وأنى أبيت
 وماذا بمصر من المضحكات
 بها نبطى من أهل السواد
 وأسود مشفوه نصفه
 ومن جهلت نفسه قدره

ركود

كانت الكوفة في ذلك الحين لا تزال مستباحرة العمران كثيرة السكان واسعة الرقعة ، بها نحو خمسين ألف دار من ربيعة ومضر ، ونحو أربع وعشرين ألف دار لقبية القبائل العدنانية ، وستة آلاف دار للقبائل اليمنية ، وبها كثير من العلويين الذين اتخذوها موثلاً أيام الدولة الأموية لكثرة أنصارهم بالعراق ، وللقرار بأنفسهم من موجات الظلم والاضطهاد .

وكان المسجد الذي بناه علي بن أبي طالب لا يزال ماثلاً بعد أن جد د بناءه وأقام ما أنهار منه يوسف بن عمر عامل هشام ابن عبد الملك على العراق ، وكان هذا المسجد روضة العلماء والأدباء والمحدثين ، ومبارة طلاب العلم والأدب ، وهو المسجد الذي تلقى فيه أبو الطيب في طليعة صباه علوم الأدب واللغة ، وفيه كان يجلس إلى الناشئ الأصغر الشاعر ويكتب عنه ما يمليه من شعره على الطلاب .

وكان يحكم الكوفة حين عاد إليها أبو الطيب وال من قبل معز الدولة له ميل إلى الأدب والشعر ، وحب للعلم والعلماء ، ولكنه كان شديد الحرص على منصبه ، كثير الخوف والوساوس من كل ما يؤدي إلى سخط بغداد أو يجر عليه مصيبة العزل التي أصبحت شبحاً مخيفاً يساوره في اليقظة والنام .

بلغ أبو الطيب الكوفة بعد رحلته المضنية القاسية الجريئة ، فاتجه نحو داره وكانت بمحلة العلويين بالقرب من المسجد الجامع ، فمشى في طرق اشتبهت عليه منافذها ، ولقى أناساً ليس له بهم عهد ، فقد غاب عن الكوفة وعن أهلها أكثر من ثلاثين عاماً ، مات فيها أقوام وولد أقوام ، وهدمت معالم وقامت معالم ، وليس ببعيد أن يكون قد مرّ بباله وهو يتطأع يميناً وشمالاً في دهشة وعجب ، ذلك الرجل الذي بعثه إخوانه من أهل الكهف بعد أن لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً لينظر لهم أيها أزكى طعاماً وليأتيمهم برزق منه .

كان ينظر فإذا الفناء الرحيب الذي كان يلعب فيه مع أترابه أصبح دوراً ومتاجر ، وإذا القصر الذي كان أهلاً بسكانه عامراً بأسباب الغنى والسؤدد مائجاً بعبيده وجواريه أصبح طلالاً دارساً وربعاً محيلاً ، وإذا الشجرة التي كانت لا تتجاوز قامته حيناً كان يمر بها وهو ذاهب إلى المكتب ، أصبحت دوحة باسقة ممتدة الأفنان . كل شيء تغير ، وكل مظهر تبدل ، والزمن كفيل بأن يغير كل شيء . « ومن ذا الذي يا عز لا يتغير ؟ » إنه هو نفسه تغير ، فليس هو الآن ذلك الطفل المرح الوثاب الذي يسره كل شيء ، ويضحكه كل شيء . أين هو الآن من ذلك الطفل بعد أن فارقه ثلاثين عاماً ثم عاد إليه بنفس جديدة ، وخلق جديد ؟ إنه الآن لا يقنع بما دون الملك ، ولا يرضى بأقل من اقتناص البراة إذا اصطاد غيره البغاث والرخم ، ولا يهدأ إلا

إذا حلتق في السماء ورأى الناس تحته كأنهم ذباب أو نمل .
إنه الآن يقول :

وما تسع الأزمان علمى بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملى
إنه الشاعر الطموح ، والشارد الجموح ، والصخرة النطوح .
إنه هو الذى ازدهى على الأمراء وتحكم فيهم ثم هجاهم ، وهو
الذى تزلف إليه العظماء فازدراهم ، وسمت إليه عيون الشعراء
فهرهم وأخرسهم ، وحاول علماء الأدب واللغة أن يجروا معه في
شوط فبزههم وأخذ أنفاسهم . إنه الفارس المغوار ، والبطل الكرار ،
الذى تحدى الصحراء وأرغم أنف البيداء ، وصارع الموت
وأفنى الفناء .

يحاذرنى حتى كأنى حنفته وتنكرنى الأفعى فيقتلها سمي
هذه هى نفس أبى الطيب حينما عاد إلى الكوفة . وهذه
بعض خواطره التى كانت تضطرب فى صدره .

بلغ المتنبي داره فطرق ابنه الباب فأسرع « مفلح » إلى
فتحه ، ودخل أبو الطيب ومحمد وبعض عبيده ، فصاح
محمد : أين أمى ؟ فأطلت من أعلى السلم امرأة فى نحو السابعة
والثلاثين ، لا تزال تزهى بريان شبابها ، وتدل بنصرة عودها ،
وكان فى وجهها نبل واستسلام وثقة ، وفى نظراتها حيرة وذهول
ودهشة . وهى من أسرة عريقة بالشام فتن بها المتنبي وفتنت به ،
وكانت تشبهه فى قوة الجلد وبعدها الهمة ومضاء العزيمة .

لم تكذ الأم تسمع صوت محمد حتى أسرعته إليه فوثبت

فوق درجات السلم وثباً ، ثم مدت ذراعها في شوق وحنان فطوته إلى صدرها وهي تغغم :

— وهكذا يا ولدى يلتقي الشتيتان وإن طال الزمان . ويعود القارطان بعد قنوط وإياس . ثم ألفت على جبينه قبلة فيها كل معاني الحب والشوق ، واتجهت نحو المتني في إجلال وشغف فعانقته عناق الحب الواله المهجور ثم قالت :

— الحمد لله على سلامتك يا سيدي . لقد طالت الغيبة وانقطعت الرسائل منذ بعثت بي إلى هنا ورحلت وحدك إلى مصر ، ولقد كادت الوسوس تعبت بي لولا ما كان يملأ المدينة من أخبارك بين الحين والحين ، فإنك يا سيدي ما كنت تنشد قصيدة بمصر حتى تطير إلينا أبياتها بعد قليل . مالي أرى سيدي مضى هزيلا ؟

— لقد لوحنتي الصحراء يا فاطمة ، وكان القيظ شديداً والسير مجهداً والطريق وعراً كثير المخاطر ، ولكن شوق إليك هوّن عليّ كل شيء . كيف الحال ؟ وكيف قضيت هذه السنوات الخمس ؟

— بخير يا سيدي ، ولقد كان لسيدتي زينب زوج الشريف الحسن بن عمر العلوي الفضل الأكبر في إزالة وحشتي ، فإنها كانت تكثر من زيارتي وتنقل لي عن زوجها أخبارك بمصر ، ومنذ شهر وصلت قبصيدتك التي هجوت بها عبد الإخشيد وكانت سمر الناس وحديث الأدباء ، ولقد علمت منذ أيام بقرب قدومك

إلى الكوفة ، فقد أرسل إلينا الوالى أحد أعوانه ليتحقق من عودتك ، فلما أخبره مفلح بأنك لا تزال غائباً أسر إليه بأنك خرجت من مصر منذ أشهر ، وأن معز الدولة بعث إلى الوالى طلباً منه استقصاء خبرك. فأطرق المتنبى مفكراً ثم رفع راسه وقال : معز الدولة الديلمى الغاشم مقطوع اليد اليسرى يسأل عنى ؟ ما هذا النحس الذى يلاحقنى ؟ أأفر من الأسود الماكر فى مصر ليطاردنى الأعجمى الغادر بالعراق ؟ قاتل الله الشعر الذى يصلنى بأمثال هؤلاء . لن أقول من الآن شعراً ، ولن يظفر منى أمثال هؤلاء المناكيد ببيت واحد . ثم لمح على الحائط بيتاً من الشعر كان كتبه بخطه وهو فى العاشرة فقراً :

وإلتمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاق الذل غير مكرم
فأخذته رعدة ، وطافت بنفسه ذكريات وأحلام وصاح :
نعم ، إننى خلقت فارساً قبل أن أخلق شاعراً ، وقد ألقيت عنانى
لشعر طويل فأحلى دار الهوان وزحزحنى عن قمة المجد ،
وسأسكت اليوم شعرى ليتكلم سبنى .

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم
ثم قام فخلع ثيابه واستلقى على فراشه شاخص العينين شارد
الفكر مضطرباً ، فقد كانت تطوف بذهنه أطياف من الماضى
القريب والبعيد ، وصور من الحوادث ، وتهاويل من الآمال
والأحلام التى ذهبت بدداً وآضت حطاماً . مرت به أيام صباه
وما كان فيها من أمل مكبوت كالزهره المنطوية فى كمها ، والنار

الخبوة تحت رمادها ، ومرت به أيام رحلته إلى دمشق في طلب العلم والأدب وهو بعد غلام لم يطر شاربه ، وما قاسى في تلك الملاوة من فقر وضنك وسغب ، ومرت به أيام استجدائه بالشعر ذليلاً متصاعراً ينتقل على قدميه من بلد إلى بلد . ويمدح من هو بالصرع أجدر منه بالمديح ، وينثر الدر فوق رعوس الخنازير ، ثم مرت به أيام حلب وأيام سيف الدولة حين بلغ القمة ووصل بعد طول الكد إلى الغاية ، فاختلج فؤاده وهاجت بلابله ، وطافت بوجهه سحابة حزن غائمة ، وضرب كفاً على كف ، فقد كان ينبغي ألا يفارق سيف الدولة ، وكان ينبغي أن يصل حظه بحظه في ميزان القدر ، ثم مرت أيام كافور وما كان فيها من آمال طارت قبل أن ينبت لها جناح ، ودفنت قبل أن تلمح نور الحياة ، ثم دار فكره دورة سريعة نحو ما يستقبله من أيام وأحوال ، وما ينتظره من أحداث وخطوب ، هذا معز الدولة يسأل عني . لقد علم بفرازي من مصر . ماذا يريد مني ؟ إنه رجل خبيث ما كر منتقم ، ووزيره المهلبي شر منه وأشد نكراً ، إنني سأطوى صحائف الشعر ، لقد نلت من جرائمه ما كفاني ، سأقيم في داري ، وسأنكتب على دراسة الأدب واللغة ، ولن يدوي لأبي الطيب بعد اليوم في الآفاق صوت ، ولن يشعر أحد بمكانه . لقد نال من الشهرة والمال فوق ما تطمح إليه الشهرة ويصبو إليه حب المال ، ولكن تلك النفس التزوع لا تطيعني ، وهذه الروح الوثابة لا ترضى بالسكون كأنها الطائر القلق لا يستقر في

وكن ، إننى خلقت من عصف الرياح وهدير السيول وقعقة
الرعود ، فلن أستطيع أن أجلس هادئاً فى عقر دارى ألقن هذا
بيتاً من الشعر ، وأصحح لهذا كلمة فى اللغة . لم أولد وفى يدي
مغزل ، ولكنى ولدت وفى يدي سيف بتّار . لست ممن يجلس
فى شمس الشتاء ويستظل من لفحات الهجير بدوحة أو جدار .
طوال الردينيات يقصفها دى وبيض السريجات يقطعها لحمى
لا . لا . لن أستطيع القرار ، ولن أستطيع أن أثبت وأدع
العالم يموج ويتحرك ، ولن أستطيع أن أدع الفلك يدور دون
أن يتحدث باسمي ويملاً الأسماع بمحامدى ، ولن أطيق أن
أرى الأرض تقسم دولها بين منتفخى البطون وأنا واقف أنظر
إلهم غرثان ظامئاً . كان لى أمل فى كافور ، وكان لى أمل فى
فاتك ، ولكن هيات . هيات . ذهب كل شيء . ولم يبق إلا
أن أكتفى من الغاية بما يقرب من الغاية ، وإذا فاتنى الملك فلن
تفوتنى المنزلة الرفيعة بين ملوك الأرض ، ولن يفوتنى أن يعدنى
الناس ملكاً من غير صولجان . أما أن أقبع فى دارى فليس إلى
ذلك من سبيل . ولكن كيف أتقى خطر مطامحى؟ وكيف أتجنب
ما تجره مصاحبة كبار الساسة من ويلات؟ يجب أن أحذر .
ويجب أن أتعلم من تجاربي . ويجب أن أبتعد قليلاً حتى أصون
لنفسى كرامتها وعزها ، وحتى يطلبنى الملوك ولا أطلبهم ، وحتى
أتخلص من وصمة الشاعر المستجدى الذى يطرق كل باب
ويجلس على كل خوان . هذا هو الذى يجب أن يكون ، الأمر

لله من قبل ومن بعد . ثم أخذته سنة فنام .

وشاع خبر وصول المتنبى إلى الكوفة فتنقل في كل دار ،
ورف فوق كل سامر ، وردده كل لسان ، فكانت المرأة
تنظر من نافذة دارها وتصيح بجارتها قائلة :

— أعلمت أن ابن الحسين قد وصل إلى الكوفة بالأمس ؟
— لقد أخبرني بذلك أبو محمد فياله من خبر غريب . إن
زوجه كانت من الصابرات حقاً ، ولعلها اليوم أسعد امرأة بالكوفة .
— كانت جدته تمنى هذا اليوم ، فقد كانت وهى على
فراش الموت تتلهّف للقائه ، وتلثم آخر رسالة بعث بها إليها ،
وكان لسانها يتلعم بترديد اسمه حتى ماتت .

ودخل طالب مسجد الكوفة في الصباح وكان يزخر بالعلماء
والطلاب فرفع صوته قائلاً :

— أيها الطلاب لقد عاد بالأمس أبو الطيب المتنبى إلى
وطنه . فصاح أحدهم :

— أهلاً أهلاً بشاعر العرب ، إن المتنبى مجد الكوفة ومجد
العروبة ، لقد كنا بالأمس نتذاكر قوله :

وإني لنجم تهدى صحتي به إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لا يستغزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
فقال أحد الشيوخ : لقد أئذرنا أبو الطيب بأنه لن يعود إلى
الكوفة . ولكن الله كذب ظنه وعاد المتنبى لملأ آفاقنا تغريداً .
والتقى في سوق الوراقين الحسن العلوي بحماد الوراق فحياه وسأله :

— أبلغك وصول أبي الطيب إلى الكوفة بالأمس ؟
 — بلغني يا سيدي ؟ . إن الخبر ملاً المدينة ، إن صبيان
 المكاتب يترنمون بأهازيج الترحيب به .
 — أظنك تعرفه وهو غلام ؟

— أعرفه يا سيدي ! لقد كان يتردد على دكاني كل يوم ،
 ولكني لم أكسب منه درهماً ، كان يتناول الكتاب ويجلس على
 هذه الدكة ، فإذا مرت ساعة أو نحوها أعطانية لأضعه في
 مكانه ، فإذا طلبت منه أن يشتريه . أخبرني بأنه حفظه عن
 ظهر قلب من الدفة إلى الدفة .

وأقبل لزيارة المتنبّي كبار العلماء والأدباء في المدينة ، وتوافد
 عليه الطلاب يسألونه ويقيّدون عنه ما يملئ ، وكان يجلس على
 كرسي ضخم في صدر القاعة وبجانبه محمد ، وقد وقف عند
 الباب عبده مفلح ، وكان بين زوّاره الشريف الحسن العلوي
 وابنه الحسين ، وكان فتي في العشرين وسيم الطلعة حسن الحديث
 حاضر البديهة ، فقال العلوي :

— لقد كانت الكوفة تتشوّف إلى قدومك يا أبا الطيب بعد
 أن تراجع مجدها وكادت تزدوي أفنان الأدب والشعر فيها .
 — إننا رأينا ما رأينا من ملوك وأمم وممالك ، فعرفنا أن كل
 شيء في هذه الدنيا هباء ، وأن آمال المرء فيها هواء .
 — لقد نلت في هذه الرحلة ما لم ينله شاعر ، وبلغت منزلة
 تتقطع دونها أعناق الآمال .

— وماذا حصلت عليه بعد ذلك يا ابن الرسول ؟ لا شيء
إلا أني عدت إلى داري في الكوفة أحمل فوق كتفي أثقال السنين ،
بعد أن خرجت منها يافعاً ريان الشاب .

— خرجت سنة تسع عشرة وثلاثمائة فاراً من القرامطة ؟
— نعم يا سيدي ، فلقد كان القرامطة بلاء على الكوفة
وعلى العراق كله .

— لقد دمروا وأحرقوا كثيراً من الدور والمساجد ، وكم نهبوا
وسلبوا وفعّلوا الأفاعيل .

— وكنت في ذلك الحين شادياً في الشعر فنظمت قصيدة
أهجو فيها زعيمهم أبا طاهر فبلغه خبرها فأهدر دمي ، فخرحت
فاراً مع أبي في حماية الليل وستاره حتى بلغنا بغداد فلم أقم بها
طويلاً حتى ودعت أبي واتخذت طريقي إلى شمالي الشام .

— وقد مضى منذ ذلك الحين أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا
يزال هؤلاء القرامطة يعمثون بالفساد حول الكوفة ، لأنهم قوم
فجرة يستحلون كل شيء ، ولا يخضعون لحاكم ، ولا يرجعون
إلى شرع ، وبينما هما في الحديث إذ دخل مفلح بنبي المتنبى
بقدم الوالي ، فلم يزد على أن هز رأسه ليدل على أنه علم بالأمر ،
ودخل الوالي فهناه بسلامة قدومه ورد المتنبى تحيته بتحية
امترج فيها الإجلال بتواضع الكبراء ، وذهب الحديث مذاهب
شتى ، وجاء ذكر سيف الدولة وكافور فقال الوالي :

— لقد كانت تصل إلينا قصائدك في الأسود فكنا نفرؤها

ونظرب لها من وجهة أنها شعر ، لا من وجهة أنها قيلت في كافور . ويعجبني فيك يا أبا الطيب أنك لا تصرف القصيدة كلها إلى ممدوحك كما تفعل جمهرة الشعراء ، ولكنك تتصدق عليه بأبيات قليلة ، ثم تتجه في بقية القصيدة إلى الحكمة العالية وخوارج النفوس وما يجيش به صدرك من همم وعزائم ، ولقد أحزنتني حقاً أن تقول في كافور :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران
هذا بيت لم تتفتح عن مثله شفة شاعر منذ عرفت الأوزان
وقيلت الأشعار . وكان من مصائب القدر أن يبقى دره مخزوناً في
أطواء الزمان حتى ينثر على الأسود الحبشي . ما أجل المعنى ،
وما أروع اللفظ ، وما أبعد الخيال . وأبدع ما في البيت كله
كلمة « شيء » هذه . فما أحلى هذا التنكير وهذا التجهيل الذي
تضمنته . كان مولانا معز الدولة أحق بهذا البيت وأجدر . فهو
زند الخلافة وعضدها ، وحامي حمى المسلمين ، ومعلی كلمة
الدين ، والملك الذي له من القوة والسلطان ما يصح أن يقال فيه
مثل هذا الكلام . أذهب أنت إلى بغداد يا أبا الطيب بعد أن
تستريح قليلاً بالكوفة ؟

— إنني سأستريح طويلاً يا سيدي ، وسيستريح معي شعري .
— لا . إن شعرك لا يستريح ، إن الطائر لا يستطيع إلا أن
يغرّد ، والمسك لا يملك إلا أن يفوح . قل لي بالله متى تذهب
إلى بغداد حتى أكتب إلى مولاي معز الدولة ؟ لقد كتبت اليوم

رسالة إلى الوزير المهلبى أخبره فيها بقدموك ، وأكبر الظن أنه لن يدعك تستريح يا أبا الطيب . إن الناس يطمعون في أدبك وشعرك ، لقد رفعت سيف الدولة إلى القمة ، وملاّت الدنيا بمدح كافور ثم بهجائه ، وأظنك لا تبخل على الخلافة ورجالها ببعض ما نثرته على تابعيها من الأمراء .

— سأنظر في هذا يا سيدى ، ولكنى الآن أوثر الهدوء والاستقرار بعد أن طوّحت بي الطوائف .

— لست ملكاً لنفسك يا أبا محسد، وإنما أنت ملك العرب وملك الخلافة، وكان يجب على ابن العراق ألا يشيد إلا بمجد العراق. خلصنى بالله يا أبا الطيب ، فقد ينالنى لوم من دار الخلافة إذا لم تسرع إليها . — لا لوم ولا تريب يا سيدى ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

وانفضّ المجلس ، وتوالت الأيام وتوالت المجالس ، وفى كل يوم يزيد أبو الطيب سأمًا وتبرمًا . إنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش الناس ، لقد عاد إلى ديوان شعره فرتبه وكتبه وأسقط منه ما أراد أن يسقط وزاد فيه ما راق له أن يزيد ، وانتهى الديوان ، وعادت الحياة إلى ركودها . ورأى أن يتخذ الصيد مسلاة فما مرت أيام حتى ضجر بالصيد وملّ الركوب ، ورجاه صديقه الحسن العلوى أن يمدح بنى هاشم بقصيدة فسقط القلم من بين أنامله ولم يستطع أن ينحط حرفاً ، ماذا جرى له ؟ وما هذا الحنين إلى الغربية والانتقال ؟ إنه اليوم بين أهله وولده يعيش فى أرغد عيش وأرفه حال ، فما هذا الضجر الذى ينتابه فى كل حين ؟ وما هذا التزوع

إلى القلق والاضطراب في الأرض ؟ إن من الناس من تتعبهم الراحة ويضنيهم طول الحمام ، يجب أن يرحل عن الكوفة ، ويجب ألا يحصره وطن ، إن العباقر لا وطن لهم أو إن وطنهم الأرض كلها . ولكن أين يذهب ؟ لقد رجاه صديقه علي بن حمزة في أن يزوره ببغداد ، ولقد توالى كتبه وتتابعت رسائله ، وكان في هذه الرسائل ملحاً ملحفاً ، فهو لا يريد أن يدفن أبو الطيب نفسه حياً بين عجائر الكوفة وشيوخها ، وهو يضمن بهذه الجذوة المتوقدة أن تخمد ، وبهذا النبوغ النادر أن ينطفىء ، وبهذا الشعر الرائع أن يجبل . ويقول إن بغداد تتشوّف إلى لقائه ، وتمد أعناقها لترقبه من الخليفة ومعز الدولة والوزير المهلبى إلى صغار المتأدبين . فلم لا يذهب إلى بغداد ؟ ولم لا يعلم دعاة الشعر فيها أن الشعر شيء غير نظم الكلام ؟ ولم لا يلوح بشعره لمعز الدولة أو للمهلبى حتى يأتيا إليه حبوا ؟ ولم لا يضرب من كانوا يتهون عليه ويخذعونه كسيف الدولة وكافور ضربة قاصمة بما يناله من الحظوة وعظيم المنزلة عند معز الدولة ؟ ولم يستبعد أن ينال من معز الدولة ما تصبو إليه نفسه من الولايات إذا أحسن التأتى وأتقن الخداع وعرف الطريق إلى نفسه ؟ يجب أن يذهب إلى بغداد غداً . نعم غداً يرحل إلى بغداد . ويفيق المتنبى من هذه الغمرات فيسمع صوته وهو ينادى محسداً ، ويقبل محسد فيبتدره قائلاً :

— قل لمفلح يعد الخليل والإبل فسرحل غداً إلى بغداد .
وتدخل فاطمة وعلى وجهها مسحة من الحزن لهول ما علمت

من وشك رحيله وتقول :

— أتطول هذه الرحلة يا سيدى ؟

— لا أدرى يا فاطمة ، ولكنى لن أتركك وحدك هذه

المرّة ، فإذا اطمأن بي المقام ببغداد أرسلت مفلحاً لإحضارك.

وجاء الغد وأعدت الركائب فى الصباح ، ووقف المتنبى

وفى وجهه لمحات يختلط فيها اليأس بالأمل ، فقبل زوجته ثم صاح

فى ودیعة الله . وامتطى جواده وهو يردد :

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالإقلال من شيمى

ولا أظن بنات الدهر تتركنى حتى تسد عليها طرقها همى

استفزاز

بلغ الركب بغداد في أصيل يوم من ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ونزل أبو الطيب وابنه وعبيده في خان من أفخم خانات المدينة ، وكانت بغداد في ذلك الحين لا تزال تحتفظ ببقية من عظمة العباسيين وحضارتهم ومجدهم الأثيل مع ما أصابها من ظلم معز الدولة وإقطاع قواده وجنوده القرى جميعها ومصادرتة الغاشمة للأموال ، وكانت عش العلماء وموئل الأدباء والشعراء وملتقى أُمم الأرض من كل أفق ودين ، وكانت تزخر في هذا الحين بالجواسيس وأصحاب الأخبار فمنهم جواسيس لمعز الدولة ، وجواسيس لكافور ، وجواسيس لسيف الدولة ، وجواسيس لعضد الدولة ملك فارس ، وآخرون للفاطميين ملوك المغرب .

وصل المتنبى بغداد فتمتم الجواسيس الخبر ونقله بعضهم إلى معز الدولة ، وأرسله بعضهم إلى ممالكهم على أجنحة الطير ، وما كاد معز الدولة يتلقى الخبر حتى بعث في طلب وزيره المهلبى . وكان معز الدولة في التاسعة والأربعين قوى البناء قوى الشيكمة أصلع الرأس شديد احمرار الوجه له عينان كأنهما عيننا نمر ، وكان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى شرساً سريع الغضب حقوداً شحيحاً ، ولم يكن إلا قائداً ماهراً وشجاعاً واسع

الحيلة ، أما الشعر وأما الأدب فكان بينه وبينهما بون بعيد . نشأت به وبأخويه دولة بني بويه ، وكان في أول نشأته فقيراً يعيش من جمع الخطب وبيعه ، وحينما استولى على بغداد انتزع الحكم من أيدي الخلفاء واستبد به . فخلع الخليفة المستكني بالله وسمل عينيه ، وولى مكانه الخليفة المطيع على أن يكون شبحاً من أشباح الماضي لا ينقض ولا يبرم . أما وزيره المهلبي فكان رجلاً أديباً شاعراً لين الجانب خصيب الجانب ، عرف البؤس مرّاً أيام شبابه فتمسك بمنصبه حريصاً عليه وعطف على الأدباء البائسين ، وكان مجلسه منتدي رحيباً للعلماء والأدباء والشعراء أمثال أبي الفرج الأصفهاني والسري الرفاء وابن البقال وابن سكرة وابن الحجاج .

دخل المهلبي على معز الدولة فسمعه عن بعد وهو يهدر هدير البعير ، فلما رآه صاح :

— لقد قدم المتنبي بغداد الساعة فاذا ترى ؟ أليس في قصرى من شعراء بغداد والمتطفلين عليها من يزيدون على الحاجة ؟ لقد أصبحت معدتي لا تستطيع هضم أشعارهم ، وهذه الأموال التي تبغث في كل عام عليهم أولى بها أن تندفق على القواد والجنود . — يا مولاي إن المتنبي شاعر مر اللسان مر العود شائك الجانب ، فإذا لم تقبل عليه وتملاً فه بعطايك فربما خرج عن جادة الأدب ، وشعر هذا الملعون له أجنحة لا تمل الطيران . — إنه عرض بي وكاد يصرح بهجائي في بعض مدائحك لهذا

العربي المفتون الذي يدعو نفسه سيف الدولة ، فلن يطأ بساطي .
ولن ينشد أُمّامى شعراً . إن له أن يقيم ببغداد كما يشاء في بغداد
من هم شر منه من حثالات الأقطار ونفايات الأمم .

— إن الرجل يا مولاي ليس ممن يستهان بأمرهم ، وليس
ممن توصلد الأبواب في وجوههم ، فقد بلغ منزلة من المجد الشعري
يجب أن نخضع لها راضين أو كارهين ، والذي أشير به ألا نبداً
الرجل بالعدوان ، وألا نلقى بأنفسنا عند أقدامه متزلفين متملقين
كما فعل الفرسي سيف الدولة ، وكما فعل المأفون الجاهل كافور ، فكان
جزاؤهما منه الجفاء وشر الهجاء . والذي أنصح به أن ننتظر
وتتربص ، فإذا جاء إلى القصر مستجدياً متواضعاً كما يجيء غيره
من الشعراء والتمس الإذن بمديح مولانا فتحنا له الأبواب مرحبين ،
وأجرنا له الصلة مغدقين ، أما إذا لم يفعل شيئاً من ذلك فليس
له عندنا إلا أن نترك لجواسيسنا مراقبته من بعيد ، وأن نجعل
إقامته ببغداد جحيماً لا تطاق .

— أليس بين شعراء بغداد وأدبائها من يبلغ منزلة هذا
المتنبي ، ومن يستطيع أن يحطم صلفه وكبرياه ؟ فإن من العار
أن يقال إن دار الخلافة أقفرت من الشعراء فلم يقف فيها شاعر
في وجه هذا المغامر الأفاق .

— إن شعراء بغداد يا مولانا كالكلاب المضرة ، وهم رهن
إشارتي ، ولكني لا أعطي هذه الإشارة إلا في وقتها ، ويجب
أن ننتظر كما قلت .

— فلنتظر إذاً ، وإني سأترك لك الأمر كله . وانتهى
لحديث فحاضاً في شئون أخرى .

وعلم علي بن حمزة اللغوي بقدوم المتنبى فأسرع إلى الخان
وطلب منه أن ينزل بداره فقبل بعد رجاء وإلحاح . وكانت دار
ابن حمزة في ربض حميد بالجانب الغربي . فأقام بها أبو الطيب
مدة ثوائه ببغداد ، وكان يتردد عليه كل يوم شعراء المدينة
وأدباؤها ورجال اللغة فيها ، واتصل به في هذه الفترة تلميذه أبو
الفتح عثمان بن جني ، وكان شاباً لم يجاوز السادسة والعشرين
يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة على التحصيل والمدارسة ، واقتنص
علي بن حمزة الفرصة فروى عنه ديوانه ووقف منه على ما أشكل
عليه من ألفاظه ومعانيه ، ومرت بالمتنبى أيام وهو على تلك الحال
حتى فاجأه ابن حمزة يوماً سائلاً :

— ألا تريد أن تزور الوزير المهلبى ؟

— إني أنتظر أن يدعوني إليه .

— إن الوزراء والأمراء في بغداد لا يدعون الشعراء ، وقد
جرت عادة العظماء مثلك أنهم إذا نزلوا بلد ملك أو أمير أن
يبدعوه بالزيارة .

— إنني لن أبذل نفسي رخيصة ، وكان يجب على المهلبى
بعد أن علم بوصولي أن يلح في أن أكون ضيفه ، وأن يفرد لي
جناحاً بغصن الخلافة . فنظر إليه ابن حمزة في عجب ودهشة وقال :
— إن وزيرنا المهلبى رجل شاعر أديب سخى الكف ، ولكنه

إلى كل ذلك مغال في تقدير كرامته معتر بكبريائه ، يرى أن من دون مقامه أن يستجدى شاعراً أو يتملق أديباً ، على أنى أعتقد أنه ينتظر زيارتك في قلق وشغف .

— فلينتظر إذأً طويلاً فإنى لا أزور هذا الخليج الماجن .
 — لا يا أبا الطيب ، إنك رجل جم الآمال بعيد المطامح ، وقد قضيت الحياة في كد ووثوب فبلغت من بعد المنزلة مكاناً قصياً ، ولكنك لم تصل بعد إلى الغايات التى أقرؤها في شعرك .
 لقد سقطت من سلم الطموح مرتين كنت فيهما موشكاً على القمة : مرة عندما غضبت على سيف الدولة ومرة عندما غضب عليك كافور ، فإيتاك وأن تسقط الثالثة ! إن لنا أملاً كبيراً فى المهلبى وفى معز الدولة ، وإن رجلاً مثلك لو ظفر بمودتهما لظفر بكل شىء . فإذا كنت قد طمعت عند كافور فى ولاية ، فهنا مصدر الولايات ، وهنا النبع الفيّاض برفيع المناصب ، وهنا خلافة المسلمين التى جعلت كافوراً ملكاً ، وسيف الدولة أميراً .
 — كنت أحب أن يبدأ مهليكم بدعوتى ، والذى أخشاه الآن ألا أقابل بما يليق بمثلى من الكرامة .

— هذا وهم يا سيدى . إن شهرتك غرست فى قلوب الناس منك رهبة لم يخل منها قلب أمير أو وزير . اذهب إليه يا أبا الطيب غداً .

— سأذهب .

وفى صباح اليوم الثانى ركب أبو الطيب فى عظمة تشبه

عظمة الملوك وخلفه العبيد والخدم بين فارس وراجل ، وقصد إلى قصر الخلافة فاستقبلته حاشية الوزير في إكرام وحفاوة ، وأسرع المهلبى فأذن له فدخل عليه المتنبي في تودة وجمالة سميت مرتفع الصدر شامخ الأنف ، كأنه أسد ابن عمار الذى يقول فيه :
 يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
 فحيا الوزير ورد الوزير تحيته في شيء من الفتور بعد ما رأى من تشامخه وتعاضمه ، وتقدم المتنبي فجلس إلى جنبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكان بالمجلس أبو الفرج الأصفهاني وابن البقال الشاعر ، واتجه المهلبى إلى أبي الطيب وقال في تهكم لا يكاد يلمح :

— لقد زرت بغداد منذ شهر يا أبا الطيب ولم ترزنا ، أتعد هذا تجنباً أم تجنبياً ؟

— الأعدار كثيرة يا سيدى .

— الأعدار تقول يا أبا الطيب إنك بخير وعافية ، وإنك تقضى وقتاً طويلاً كل يوم في دراسة شعرك مع ابن حمزة وابن جنى . كيف تركت الأسود بمصر ؟

— تركته وهو لا يزال أسود .

— ألا تزال تهدد الناس بشعرك يا أبا الطيب ؟

— إن شعرى مرآة أخلاق الناس ، وليس على المرأة من ذنب إذا كشفت وجهها دميماً .

— أرجو أن تحسن وجوهنا في مرآة شعرك ، فابتسم المتنبي

ابتسامة ساخرة ولم تعجبه ملاقاتة المهلبى له وقال :
 وأحسن وجهه فى الورى وجهه محسن وأيمن كف فيهم كف منعم
 - نترك الإحسان والإنعام الآن يا أبا الطيب حتى نسمع .
 والتفت إلى أبى الفرج وأخذ يطارحه الشعر ونوادر الأدب ،
 والتمني يشترك فى الحديث متعاضماً ، يخطئ هذا ويحبه ذاك ،
 حتى انفصّل المجلس فخرج مغيضاً ساخطاً ، لأن المهلبى لم يحسن
 لقاءه كما يجب ، ولم يستجد مدحه كما كان يؤمل ، واشتد
 غضب المهلبى على المتنبي لأنه لم يمدحه ، ولأنه أظهر من
 الصلف والديه ما لا يجمل بمجالس الوزراء ، فصمّم العزم على
 الكيد له وتلقينه درساً لا ينساه فى وجوب التطامن للوزراء
 والخضوع للعظماء .

وبلغ الشاعر داره فلقبه ابن حمزة وعاجله سائلاً :

- كيف الحال يا أبا الطيب ؟

- شرّ حال ! إن وزيركم يحسبني من شعرائه المهازيل الذين
 يقعون حول مائدته لالتقاط فتاتها . ثم قصّ عليه ما دار فى
 المجلس ، فانقبض وجه ابن حمزة وقال فى تحسر :
 - لقد أضعت الفرصة يا أبا الطيب ، وسلطت عليك أكبر
 مدرب للكلاب .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنه سيرسل عليك عصابته ، وستسمع غداً فيك
 شعراً هو قىء أمعاء البديع ، وأشلاء جيفة البيان .

— لقد قلت في أمثالهم :

وأتعب من ناداك من لاتجيبه وأغیظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طيبي فهم غير أنى بغیض إلى الجاهل المتعاقل

— لا يا أبا الطيب ، إن هؤلاء ليسوا ممن يسهل اتقاء شرهم ،
أرأيت الأحوال التي كلما حاولت التخلص منها زدت فيها
ارتطاماً ؟ إن لهم في بغداد حكماً على الحكام ، ونفوذاً على ذوي
النفوذ ، إنهم يهدّون كل عظيم في عرضه وشرفه ومزال ماضيه ،
فيقبل عليهم خاضعاً مستغيثاً جاثياً على ركبتيه ، باذلاً كل ما
يضر بونه عليه من مال . إن قطاع الطريق ولصوص الليل أشرف
منهم نفساً وأكرم خلقاً ، لأنهم يعفون عن استلاب النساء وقتل
الأطفال ، أما هؤلاء فلا تسلم منهم حرمة ، ولا يتزهون عن
ملائمة . إنهم يرسلون البيت من الشعر مسموماً كما يرسل القرمطي
سهمه لا يبالي إلى أي قلب نفذ . وهؤلاء جميعاً في قبضة المهلبی
يوسوس لهم بالدنانير فيقبلون ، ثم يوجههم إلى الصيد فيتواثبون ،
وهو يطل عليهم من بعيد جذلان مسروراً . وكلما زاد أحدهم في
النهش زادت المكافأة وكلما ولغ أحدهم في الدماء عظم الجزاء .
إن هؤلاء الشعراء يحكموننا الآن يا أبا الطيب ، فهم يوجبون
علينا طاعتهم ، ويفرضون علينا من الضرائب والإتاوات ما
يشاءون . والويل ثم الويل لمن أظهر العصيان أو حدثته نفسه
باستنكار شيء أو التأفف من شيء ! لا يا أبا الطيب ، اشتر
عرضك من هؤلاء ، واذهب بعد أيام إلى المهلبی وفي كملك قصيدة

في مديحه . وأنتم أيها الشعراء أجراً خلق الله على الكذب ، وأقدرهم على تصوير ممدوح خيالي تعطونه اسم من ترجون صلته . والذي مدح كافروراً يا أبا محمد لا يعجز عن مدح الجاحظ بالجمال ، وهبنة بالذكاء ، والحجاج بالرفق والحنان .

— لن امدح المغرور المستهتر ، ولن أذهب إليه . ولن أبالي بكلايه المساعير .

— ذلك لك يا أبا الطيب ، ولكني أحذرك من ابن الحجاج وابن سكرة وابن لنكك والحاتمي ، احذر هؤلاء يا أبا الطيب وتجنب الاشتباك معهم ، وإذا دفعت إلى لقاءهم فجاهلهم وتلطف . — لو كانت المجاملة من خلقي يا ابن حمزة لكنت في حال

غير هذه الحال .

وبعد مرور يوم أو يومين على هذا الحديث اجتمع بحانة بالكرخ تعرف بحانة أبي نواس ثلاثة رجال جلسوا في حجرة بعيدة عن الطراق ، وطلب أحدهم من فتاة الحان خمرأ رومية معتقة فأحضرتها ، وأخذوا يتساقون ويتهامون ثم قال أحدهم :

— لقد جعل لكل شاعر منا خمسمائة دينار .

— هذا ليس بالكثير يا ابن الحجاج .

— ما أطمعك يا ابن سكرة . أتستقل خمسمائة دينار في عشرين بيتاً أو نحوها من أقدر الشعر وأفحشه تقذف بها في وجه هذا المتنبى ، ثم تنال من بعدها شهرة الأبد ؟ ما رأيك يا ابن لنكك ؟

— أرى أن العرض حسن ، ولقد أعددت بالأمس أبياتاً وسأزيد عليها لأن الوزير وعدنى بزيادة العطاء إذا فحش المهجاء وتعددت فنونه .

— هذا حسن ، ولكن أترى أن نأخذ في هجو الرجل دون أن نستدرجه بشيء من الملاحاة والمهارشة ؟

— لا . يجب أن نزوره غداً ، وقد علمت أنه غاية في الكبر والأنفة والزهو بنفسه ، ومثل هذا يسهل اصطياده واجتذابه إلى المعركة .
— عظيم . غداً نلتقى في الصباح بدارى ، ومنها نذهب إلى دار ابن حمزة للتشرف بمقابلة هذا الزق المنتفخ . وانتهى ما فى الإناء من شراب ، وانتهى ما فى عقولهم من كيد وتدبير ، فخرجوا من الحانة يترنحون ويصخبون . وجاء الغد وأسرعوا إلى دار ابن حمزة فاستقبلهم ببشر مصنوع وترحيب متكلف ، ثم دلف إلى حجرة المتنبى فأخبره بزواره وكرر تحذيره والنصح له ، ودخل المشراه على أبى الطيب وكان جالساً فلم يتحرك من مكانه ، وأخذ ينظر فى وجوههم كمن ينظر إلى حشرات غريبة الخلق دنيئة الفصيلة ليس له بمثلها عهد ، وكرّر الشعراء التحية فبدرت منه تحية فاترة أردفها فى عجلة بأمرهم بالجلوس ، فجلس القوم والغيظ يحتدم فى وجوههم ، ثم أخذت ابن الحجاج قهقهة طويلة تصنع أنه لا يستطيع لها كما ، فنظر إليه المتنبى ازدراء وسأل :
— م تضحك يا رجل ؟

— أضحك يا سيدى لأننى سخرت بالأمس من رجل زعم

أنك كنت تطمع في ملك مصر ، وطالما لاحتيته وطالما حاججتته
ولكن ظهر لي أني كنت مخطئاً .

— كيف ؟

— لأن هذه الجلسة وهذا الصلف وهذه النظرات التعبه
الجافية لا تصدر إلا عن ملك .

— مالك ولكل هذا يا رجل ؟ أجئت لتزورني أم لتظهر
سخفك ؟ فأسرع ابن سكرة وقال :

— إن هذه المقابلة التي صدمتنا بها لا تقابل إلا بالسخف
والسخرية ، أفق أيها الشيخ من سباتك فإننا شعراء بغداد .
سل كل إنسان تلاقيه يبتئك من هم شعراء بغداد . إن في جراب
أشعارنا علاجاً ناجحاً لأمثالك المغرورين . إننا خلقنا من الشعر
ميسما يشوه الوجوه الصلقة ، ولحاماً يعقد الألسنة البديئة ، وقاراً
يلطخ العرض فلا تغسله أمواه السماء ، فقال المتنبي باسمه وكأنه
لم يسمع إلا طنين ذباب :

— لم تزد على أن جعلت الشعراء عصابة من قطاع الطريق ،
فسحقاً لك من شاعر! وما أتعب الشعر بمثلك! ثم التفت إلى ابن
لنكك وقال : وأنت يا شاعر آخر الزمان ، هل في جراب شعرك
شيء غير الذي في جراب صاحبك؟ فاتجه إليه متحدياً وقال :
— أتريد ما في جرابي ؟ إذا فاسمع :

ما أوقع المتنبي فما حكي وادعاه .
أبيع مالا عظيماً لما أباح قفاه

يا سائلي عن غناه من ذاك كان غناه
إن كان ذاك نبياً فالجا ثليق إليه

فقهقه المتنبي وضرب الأرض برجليه ، وقال :

هدأ الله أنفسكم كما هدأتم نفسي ، وأسعد بالكم كما أسعدتم
بالي ، أهذا كل شعركم ؟ في الحق لقد رعبتموني أول الأمر
حتى ظننت أن وراء تهديدكم ناراً وصواعق من الشعر الذي أعرفه ،
والذي أدخره لأعدائي من الملوك ، أما الآن وقد سمعت هذا الشعر
الذي عمشت مقلتناه ، واختلط فيه قفاه بغناه ، فلإني أستطيع أن
أمد رجلي جذلان مرحاً ، وأن أعتقد أنني سأقضي في بغداد
وقتاً سعيداً أترقب فيه كل يوم ما يضحكني ويذهب بهمومي .
رحم الله بغداداً ! ورحم الله شعراء بغداد ! هنا كان النواصي ،
وهنا كان مسلم ، وهنا كان ابن الرومي ، وأنتم اليوم تلبسون ثيابهم ؟
البسوها ما شئتم فربّ ثوب يتبرأ من كتفي لابسه ! أبقى في جرابكم
شيء من السباب ؟ إن كان فهاتوه فلإني مصغ لكم مشغوف
بشعركم ، وإن لم يكن فاذهبوا لإعداد غيره .

لا تجسر الفصحاء تنشدها هنا بيتاً ولكني الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ، ولا سمعت بسحري بابل
وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
ثم وقف فانصرف القوم صاحبين مهتدين . وبقي المتنبي
باسم الوجه عابس القلب ، إنه استطاع حقاً أن يسخر منهم
وأن يستخف بتهديدهم ، ولكنه إلى ذلك علم علم اليقين أن

أمله في الملهي ذهب إلى غير رجعة ، وأن بقاءه ببغداد أصبح محفوظاً بالمكارة . واتجه إليه ابن حمزة وقال :

— لقد كنت داهية واسع الحيلة في مقابلة هؤلاء الأندال ، ولكني لا أزال أحذرك منهم ، فإن الثعبان لا يموت إذا قطع ذنبه ، فزفر المتنبئ وقال :

— لا يزعجني شيء يا ابن حمزة إلا أن أمني في نهاية أيامي بمثل هؤلاء الزعانف .

وفي صباح اليوم التالي أطلق ابن الحجاج من داره كلبه هزيلة بعد أن علق بعنقها ورقة شدها بنحيط ، ووكل بها ثلاثة من عبيده ، وأمرهم أن يمرؤا بها في جميع أحياء بغداد وأرباعها ، وأن يطيلوا الوقوف أمام معاهد العلم ومطان الطلاب ، وأن يصونوا الورقة ويحافظوا عليها ، حتى إذا جاء المساء أطلقوا الكلبة في حديقة دار ابن حمزة .

وسارت الكلبة خارجة من سوق داخلة في غيرها ، واجتمع خلفها خلق عظيم ، ومرت بمسجد ابن رغبان حيث يزدهم طلاب العلم ، فاستوقفها أحدهم وأخذ يقرأ ما في الورقة بصوت جهير ، فكان فيها .

له الويل ابن أمي كيف مالت به الدنيا إلى خلق اللثام ؟
رمى نسب الكلاب وكان زينا بعار من مثالبه وذام
يبيع الشعر « أحمد » لا يبالي وأين لمثله خوف الملام ؟
غدا عبداً لكافور بمصر وذل لآل تغلب بالشام
سأنشده من الأشعار بيتاً له ، إن كان لا يرضى كلامي

(وأنف من أخى لأبى وأمى إذا ما لم أجده من الكرام)
وما كاد يتم القراءة حتى قهقه الطلاب وصفقوا وساروا خلف
الكلبة يدعون كل عالم وكل أديب وكل ملم بالقراءة إلى قراءة
الأبيات ، واستمرت الحال هكذا طيلة النهار ، وصار المتنبي
حديث المدينة ، وأصبح اسمه متندراً لكل مازح ، ومضغعة في
فم كل بذيء ، حتى إذا مالت الشمس للغروب قاد العبيد الكلبة
إلى دار ابن حمزة فلمحها أبو الطيب وكان في حديقة الدار ،
فأمر مفلحاً أن يحضرها بما في عنقها ، وحين قرأ الأبيات اكفهر
وجهه ، وعلم أنه أمام خصوم عاهرين لا تعجزهم دنيئة ، ولا تكفهم
ذرة من رجولة ، فدعا ابن حمزة وألتي إليه الورقة ، فلما قرأها قال :
— قاتلهم الله ، ما ألدّ خصامهم . وما أسوأ كيدهم . هذه
الكلبة مرت طول النهار بكل ناحية من نواحي المدينة ، وهذه
الأبيات قرأها آلاف من الناس بين سخرية وقحة ، وسباب
مقذع . تعساً لهم . والله ما كنت أظن أنهم يبلغون هذا . أتحب
أن أرسل إلى ابن الحجاج يا أبا الطيب ؟
— لا يا ابن حمزة ، إياك وأن تظهر المبالاة بهم ، فإن
الكلب الجبان يشجع إذا أظهرت الخوف منه .
واجتمع الشعراء الثلاثة بالوزير المهلبى ، وكان الحديث
يدور حول حادث الكلبة وما أثار في المدينة من ضحك وسخرية
وفكاهة ، وشكرهم الوزير على ما بذلوا من جهد ، ووعدهم
بمضاعفة الثواب إذا ثابروا .

ومرت أيام وأيام والمتنبى متحصنٌ بداره يكاد يخشى الخروج ومقابلة الناس ، واتفق أن دعاه أبو الفتح بن جنى للغداء بداره فأجاب الدعوة ، وركب في حشد من عبيده يقصد دار صاحبه ، وما كاد يبلغ صينية الكرخ حتى اخترق ابن الحجاج صفوف الناس وعلق بلجام جواده ، فتزاحم الناس حولهما من كل جانب ، وأخذ ابن الحجاج ينشد بصوت عال قصيدة بذيثة في هجاء أبي الطيب أولها :

يا شيخ أهل العلم فينا ومن يلزم أهل العلم توقيره
 وكان المتنبى مطرقاً في خشوع وجلال في أثناء الإنشاد ،
 لم تظهر على وجهه لمحة استنكار ، ولم تبد منه بادرة تدل على أن
 شعراً ينشد أو هجاء يقال ، وحينما أم ابن الحجاج لإنشاده التفت
 إليه أبو الطيب وقال: لقد أجهدت نفسك يا صاحبي بالوقوف
 في هذه الشمس المحرقة . ثم أرخى عنان فرسه وأطلقه للمسير .
 وكلما طالت إقامة المتنبى ببغداد زادت الحملة قوة وتأجج
 لهيها . وكانت تحرى كل هذه الأحداث وهو ساكت لا ينبس ،
 رزين لا يطيش ، ولكن نفسه كانت تتقد غيظاً وقلبه يتفتت
 كدأ ، جلس مرة مطرقاً حزيناً وقد مرت بذهنه هذه الصور
 الخزية ، وهذه الحرب الكريهة التي ألقى فيها سلاحه ليصون
 كرامته من أن تنزل في هذا الميدان ، ثم أخذ يحدث نفسه
 ويقول: إلى متى هذه المطاولة؟ وإلى متى هذا الحلم الذي قد يعده
 الناس جنباً؟ أين شعرك يا أبا الطيب؟ إن بيتاً واحداً منك كفيـل

بأن يلقف ما صنعوا وأن يلتهم حبالهم وعصيتهم . إنهم ذباب
 قدر يكفي أن تمر بنعلك عليهم فتمحوهم جميعاً . ولكنك إذا
 هجوتهم كنت لهم قريباً ، والموت خير ألف مرة من أن تكون قريباً
 لهؤلاء . اهج المهلبى إذاً ، اهجه أبا الطيب ، اهج معز الدولة ،
 نعم اهج هذين أو واحداً منهما ، فإن مثلك لا يهجو إلا الملوك
 والوزراء ، وأقسم بالشعر ومناته وعزاه إن قصيدة واحدة منك
 في هجائهما لن تكون ألفاظاً ، ولن تكون حروفاً ، ولكنها تكون
 صاعقة تحطم العروش وتبعثر التيجان . ولكن كيف تهجوها ؟
 إنك إن فعلت فلن يكون لك مسكن إلا في السماء ، نعم إن
 هجاءهما لا يبقى لك في الأرض مكاناً ، لقد غاضبت مصر
 وجفوت الشام ، فإذا فررت من العراق فأين تذهب ؟ قد يجول
 بنفسك أن تذهب إلى بلاد فارس ، وأظن أن ملكها عضد
 الدولة لا يلاقى من هجاءه معز الدولة بالقبل والعناق . لا
 يا أبا الطيب ، اصبر ما استطعت الصبر ، واكظم غيظك
 المحموم ما قدرت ، فإذا لم تقدر فارحل إلى الكوفة وادفن نفسك
 بين الكتب فقد أصبحت ميت الأحياء . وجاء ابن حمزة ذات
 مساء فدخل على المتنبى مهموماً يسمح عرقاً تصيب من وجهه وقال :
 - لقد قابلت الساعة أبا على الخاتمي فأخبرني بأنه سيزورك غداً .

- من أبو على الخاتمي ؟

- إنه من أعلام بغداد وكبار أدبائها ، وهو أستاذ كثير

من شعرائها وكتّابها .

— وماذا يريد مني ؟

— يريد أن يسعد بلقائك ، وأن يجاذبك الحديث في الشعر والأدب ، اسمع يا أبا الطيب . إن الحاتمي رجل مهيب رفيع المكانة في بغداد ، وليس هو ممن يقابل بالإعراض والسخرية كما قابلت ابن الحجاج وصاحبيه ، فرجائي إليك أن تبسط له من نفسك وحديثك ، وأن تقابله بما يليق بمثلته وكرامته ، فقد كفانا ما لقينا من الفضائح في دروب بغداد وأزقتها ، وكفانا أننا أصبحنا اليوم حديثاً لأدعياء الأدب وسخفاء المجان .

— اجعل كل هذا دبر أذنك يا ابن حمزة .

— أجعله دبر أذني إن استطعت ، ولكني لا أضيف إليه

كارثة جديدة بإهانة أعظم أدباء بغداد .

— لا . لن نهينه ما أحسن الكلام والتزم الأدب .

وجاء الحاتمي في الغد وقد اعترم أن يسقط المتنبى من سماء كبريائه ، وأن ينكس رأسه في التراب ، وأن يظهر جهله بالشعر والأدب واللغة ، ثم ينشر في طول بغداد وعرضها أنه حطم الصنم ، وخرق الطبل الأجوف ، وأن هذا المتنبى الذي يظن أن شمس العراق لم تطلع على مثله ليس إلا دعياً مغروراً أفاقاً .

جاء الحاتمي وقد ركب بغلة فارهة وحوله عدة من الغلمان بين هماليك وأحرار ، فلما بلغ الدار ولحه أبو الطيب غادر مجلسه ودخل حجرة أخرى ، وأستاذن الحاتمي وأذن له فاستقبله ابن حمزة أحسن استقبال وحياه أجمل تحية ، وكان بالمجلس

أبو الفتح بن جنى والقاضى أبو الحسن المحاملى ، ثم دخل أبو الطيب فسلم عليه الحاتمى مبتسماً وقال :

— لقد لمحتك يا أبا الطيب فى هذه الحجرة وأنا بباب الدار ، فلما علمت بقدمى تركتها ، أفعلت ذلك لكى لا تنهض إلى بالسلام؟ فسكت أبو الطيب ولم يجب ، ثم جلس على كرسية معرضاً ينظر إلى السقف والحيطان ، ولما فرغ من هذا اتجه إلى ابن جنى وقال :
— إن البيت هو :

حالفته صدورها والعوالى لتخوضن دونه الأهوالا
والضاد فى « تخوضن » مضمومة لأن الفعل مسند إلى واو
المذكرين مؤكّد بالنون . فقال ابن جنى : كنت أقرؤه
« لتخوضن » بفتح الضاد عل أن الفعل مسند إلى ضمير مؤنث
يعود على الصدور والعوالى ، وكيف يا سيدى يسند الفعل إلى
واو المذكرين المحذوفة فى « تخوضن » وهى خاصة بالعقلاء ؟
— حينما قلنا إن صدور الخيل وعوالى الرماح حالفت الممدوح
أجريناها مجرى من يعقل من الذكور .

كان يدور هذا الحديث والحاتمى متفزز متوثب ، ينفخ
من الغضب ، فالتفت إليه المتنبي وقال :

— كيف حالك ؟ فأجاب الحاتمى وهو يتميز من الغبظ :
— أنا بخير لولا ما جنيته على نفسى من قصدك ، وجشمت
دابتى من السعى إلى مثلك ، أجبني بالله أيها الرجل ! فم تبهك
وخيلاًؤك ؟ وعجبك وكبرياؤك ؟ وهل عدوت أن تكون شاعراً

متكسباً؟ إذا قصدك شريف في نسبه تجاهلت نسبه ، أو
عظيم في أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه خفضت
منزلته ، فهل المجد تراث لك دون غيرك ؟

فأطرق المتنبي وعلم أن الرجل ليس بهين ، وأنه يمكنه أن يلين
معه بعض اللين ، فقال : خفض عليك واكفف من غربك
واستأن فان الأناة من شيم مثلك . فهدأ الحاتمي قليلاً ثم قال :
— إني جئت أسألك عن أشياء وأراجعك في أشياء ،
حدثني عن قولك :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول
أهكذا تمدح الملوك؟ فالتفت إليه المتنبي في زهو وجبرية وقال :
— إن تلاميذي يمجّبونك عن كل ما تسأل . فقال ابن جني :
لا أرى في البيت إلا روعة وإبداعاً ، فإن للجيش عددا هي
السيوف والبوقات والطبول ، وإن السيف خير هذه العدد وهو اسم
الممدوح « سيف الدولة » ، أما البوقات والطبول فلها ضجيج وجلبة ،
ولكنها لا تعمل شيئاً ، لذلك شبه الشاعر بها غير الممدوح من الملوك .

— هل معز الدولة بوق وطبل ؟

— لا أدري ، وإنما أنا مفسر شعر ، ثم غمز بعينه الباقية
وقال : هل قرأت يا سيدي ما بعد هذا البيت وهو مما لم يسبقه
إليه شاعر ؟

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريني أصول ، ولا للقائليه أصول

أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار فى تجول
فقال الحاتمى : وكيف لم يخجل المتنبي من سيف الدولة
حين قال فى رثاء أمه ؟

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال
فقال ابن جنى : وماذا فى هذا يا سيدى ؟ أتستنكر أن
توصف أم ملك بالجمال ؟ أتظنه جمالا كجمال الراقصات
والقيان ؟ إنه يا سيدى جمال النفس الرضية والخلق النبيل . اقرأ
يا سيدى من هذه القصيدة وسبح بحمد واهب المواهب :

مشى الأمراء حولها حفاة كأن المرو من زف الرثال
وأبرزت الخدور نجبات يضمن النفس أمكنة الغوالى
أتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن فى دمع الدلال
ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
فقال الحاتمى : ويقول المتنبي :

وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
أما كان فى أفانين الهجاء مندوحة عن هذا الكلام ؟ فأسرع
إليه ابن جنى قائلاً : رحماك يا مولاي ، فقد جئت بأبلغ بيت
تنفس عنه الهجاء فى الشعر العربى ! ما أغرب الصورة وما أمهر
صناعتها ! إنها صورة لو عثر بمثلها حماد عجرد لأغنته عن
كل هجائه فى بشار . وفى هذه القصيدة يا سيدى :
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شمم النفوس فان تجد ذا عفة فعله لا يظلم
ومن البلية عدل من لا يعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم
واستمر الجدل على هذا النحو ساعات ، وكان المتنبي
يشترك فيه أحياناً في رفق ولين ، وشعر الحاتمي أنه إزاء شاعر
لا يدرك ، ورأى من عطف المتنبي ومجااملته في أثناء الحديث ما
خفف من حدته وهدأ من ثائرتة ، ولم يجد في نفسه حرجاً من أن
يجامل المتنبي هنا ثم يدعى للوزير المهلبى أنه انتصر عليه وغلبه ،
ونفض فنهض المتنبي مشيعاً له إلى باب الدار حتى ركب .
وزاد يقين أبي الطيب بأن السحاب يتراكم ، وأن الصاعقة
توشك أن تنقض ، فصبر على دخن ، وطوى نفسه على
غيظ دفين .

وكان كافور قد أقام أبا عوف الكنانى بدار الخلافة منذ
سنين لينقل إليه أخبارها وليكون سفيره لدى معز الدولة والخليفة ،
وقد أنبأه أبو عوف بقدوم المتنبي بغداد ، وجاءه الجواب بأن يحتمل
لقتله غيلة ، فإذا لم يستطع ألزمه طائعاً أو مكرهاً أن يمدح كافوراً
بقصيدة تمحو كل ما جرّه عليه هجاؤه من العار . وبذل أبو
عوف كل ما فى مكنته من جهود لإطاعة أمر كافور فلم يوفق .
وفى ليلة دخل عليه منصور الحلى وكان شريكاً له فى المؤامرة فقال :
— لقد اهتديت إلى أحكم الطرق وأسلمها لإنفاذ المؤامرة .
فاتجه إليه الكنانى فى تشوّف قائلاً :

— كيف ؟

— كنت اليوم أزور أبا إسحاق الصابى ودار الحديث حول المتنبى ، فأثنى عليه كثيراً وأخبرنى أنه يود أن يدعوه إلى داره ليؤدى له ما يستحق من كرامة ، وليعتذر له عما ناله من سلاطة شعراء بغداد وشنيع هجائهم ، فقلت له : إننى أؤدى عنك الرسالة يا سيدى ، فاكتب إليه رقعة لدعوته غداً وأنا كفيل بحملها إليه . فكتب هذه الرسالة ، وأخرج من كمة ورقة بخط الصابى فقال الكنانى :

— وماذا نصنع بهذه الرسالة ؟

— تسلمها إلى عبيدك غداً فى الصباح ، وتأمرهم أن يذهبوا بها إلى المتنبى بدار ابن حمزة زاعمين أنهم عبيد أبى إسحاق ، وأن سيدهم أمرهم أن يصحبوا المتنبى إلى داره .
— ثم ؟

— ثم يذهبون به إلى قصر الخالى بالزبيدية ، وهو قصر منعزل بعيد عن الدور ، فإذا بلغوا به القصر وضعوه فى إحدى غرفه وقيّده ثم هددوه بأنه إن لم ينظم قصيدة فى مدح كافور قتل شرقلة . وجاء الصباح وتمت المؤامرة ، ورأى المتنبى نفسه مقيد الرجلين وحوله زئوج تلهب عيونهم بالغضب ، وقد وضع كبيرهم على خوان ورقاً وأقلاماً وهو يقول :

هنا تكتب قصيدة فى مدح مولانا كافور ، وإلا ذهبت روحك إلى الشيطان ! وتكلف المتنبى الرضا وأظهر الرغبة ، فتركوه وذهبوا إلى سرداب القصر فعثروا به على دن ممثلى بجمهر

من خمر البلح تغلى وتشتد وتقذف بالزبد ، فتصايحوا تصايح
 الزوج ، وقال كبيرهم : لنشرب حتى يتم شاعرنا القصيدة ، فهافتوا على
 الشراب وأخذوا يكرعون ويغنون حتى صدعت الحمر رءوسهم .
 وجلس المتنبى فى غرفته يائساً ساخطاً ، ثم ألقى نظرة على
 النافذة فلمح من بعيد فتى ينصب فخه للطيور ، فأشار إليه
 وكرّر الإشارة فلم يلتفت ، فبحث فى الغرفة عن حصاة فقفذه
 بها فرفع الفتى رأسه ورأى أبا الطيب وهو يشير إليه بإشارات تدل
 على الاستغاثة وطلب النجدة ، فأسرع إليه وصعد فى السلم حتى
 وصل إلى غرفته ، فأخبره المتنبى بالقصة وطلب إليه أن يفك
 قيده فقطعه بسكين كانت فى حزامه ثم قال :

— هلم يا شيخ فإنك تستطيع أن تخرج الآن آمناً فلست
 أسمع بالدار إلا غناء سكارى .

— إذًا لقد سكر المناكيد !

— يظهر ذلك .

— دعنى الآن أكتب شيئاً ثم نخرج معاً وأخذ الورقة

وكتب فيها :

فتركبني من عزمها المركب الوعرا
 فؤاد بييض الهند لا بيضها مغرى
 نوى تقطع البيداء أو أقطع العمرا
 وخيل طول الأرض فى عينه شبرا
 وفارقهم ملآن من حقن صدرا

ولى همة من رأى همتها النوى
 تروق بنى الدنيا عجائبها ولى
 أخو همم رحالة لا تزال فى
 ومن كان عزمى بين جنبيه حته
 صحبت ملوك الأرض مغتبطاهم

ولله آيات وليست كهذه فانك يا كافور آيته الكبرى
واكفر يا كافور حين تلوح لى ففارقت مذفارتك الشريك والكفرا
فلما أتم الكتابة تسلل مع الفتى من الدار ، ورأى جواده
تحت شجرة فامتطاه وطار . وصحا العبيد وذهبوا إلى الغرفة فلم
يجدوا للمتنبى أثراً ، ورأوا الورقة فأقبل بعضهم على بعض
يتلاومون فى صخب وشكاس ، ثم حملوا الورقة إلى الكنانى فقرأها
وضرب بكف على كف وصاح فى العبيد :

لقد أفسدتم كل شىء يا عبيد السوء ، اكنتموا كل ما
جرى ، وأقنعوا أنفسكم أنه لم يحصل شىء ، لو وصل إلى
سيدى كافور علم هذه الحادثة لقتلنا جميعاً . وإنى أيضاً
سأكنم خبر هذه الورقة . ها هى ذى أنظروا ! ثم مزقها قطعة
قطعة ونثرها فى الهواء .

وبلغ المتنبى دار ابن حمزة مجهداً مكوداً مضطرب العصب
وهو يصيح : يا محسد ، يا مفلح ، فلما أقبل عليه قال : لن
نقيم بهذه المدينة إلا الليلة ، أسمعنا؟ أعدا الرواحل والجياذ ،
سرحل غداً فى الصباح . ثم أخذ يغمغم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرعوس الرياح أذهب للغية ظ وأشقى لغل صدر الحقود
لا كما قد حبيت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذل ولو كان فى جنان الخلود

رعونة

غادر المتنبي بغداد والغيط يمزق فؤاده ، والغل تغلى في نفسه
مراجله ، لقد كان يظن أن الأدباء والشعراء سيتنافسون في إجلاله
وتكريمته ، ويتسابقون إلى التقاط كل كلمة تخرج من فيه كأنما
هي قرآن مبین ، ويقتتلون على نيل الخطوة عنده والتقرب إليه ،
ولقد كان يتخيل أن الخليفة سيسرع إلى ملاقاته مرحباً محيياً ،
وأن معز الدولة سيسعى إليه على الأقدام راجياً متملقاً ، وأن
الخلافة ستخلى له قصرأ على دجلة من قصور العباسيين يطل منه
على رعية مخلصه لأدبه تردد حمده في الغدو والآصال ، ولقد
كان يتوهم أنه وقد أصبح العلم الفرد في دولة البيان ستجد فيه دار
الخلافة علماً خفياً يجمع حولها أقطار العربية ، وداعية منقطع
النظير يعيد الأوطان المتمردة إلى أحضان بغداد ، كان يحلم بكل
هذا وهو رجل بعيد الأحلام ، وكان يقدر كل هذا وهو رجل
ما أصاب مرة في تقدير ، وطالما منى نفسه بعد أن خاب في أن
ينال ضيعة أو يحكم ولاية أنه بعد أن يمد جناحي نفوذه على عرش
الخلافة ، سيصبح الأمر في الولاية الناهي في الملوك ، فهل حصل
من هذه الأوهام على شيء ؟ لم يسمع الخليفة السجين أن شخصاً
يدعى بالمتنبي زار بغداد ، ولم يقبل معز الدولة أن شاعراً مستجدياً
تياهاً يطاءً بساطه ، وتكبر عليه المهلبي وعزفت نفسه عن أن
يطلب منه شعراً ، ثم أغرى به شعراءه فزقوا عرضه واعتقلوه في

داره فلم يكن يخرج منها إلا خائفاً يترقب . هذا ما لقيه في دار
 الخلافة ، لم تر لمواهبه شبحاً ، ولم تلمح لنبوغه أثراً ، ولم تجد فيه
 إلا شاعراً طليح أسفار كلت يده من طرق الأبواب . جالت
 هذه الأفكار بنفس المتنبي وهو يقطع الطريق عدواً بين بغداد
 والكوفة عائداً إلى موطنه سيفاً محطماً ، وأملاً حائراً ، وحطاماً
 بشرياً ، فزفر في حزن وأسى وقال :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم!
 أتى الزمان بنوه في شببته فسرهم وأتياه على الهرم
 وبعد أيام بلغ الكوفة فألقى بها عصا التسيار ، وعزم على
 أن يعيش بها كما يعيش سراة المدينة ، وخلع ثياب الشاعر
 ولبس عدة الفارس وسلاحه ، وعاد إلى قضاء وقته بين الصيد
 ومجالسه الأدباء والأشراف ، وحاول أن ينسى طموحه ، وأن
 يسخر من آماله ، وأن يرضى من الغنيمة بالإياب ، ويقنع بعد
 طول الجهاد بالطعام والشراب . وبينما كان يوماً عائداً إلى داره
 إذ رأى ابنه محسداً يسرع إليه ويهمس :

— سيدى سعد الدولة هنا .

— سعد الدولة ؟ ابن سيف الدولة ؟

— نعم يا أباي ، لقد حضر منذ ساعة . فأسرع المتنبي إلى
 لقائه ، وما كاد يراه حتى انكب عليه يعانقه ويقبله ويرحب به .
 وكان أبو المعالي سعد الدولة في نحو الثالثة عشرة وسماً قسيماً تظهر
 عليه مخايل البطولة ، وتنطق في وجهه ملامح العروبة ، فاتجه

إليه أبو الطيب وقال :

— كيف حال مولاي سيف الدولة ؟

— لقد تركت أبي مريضاً ، ولكن المرض لم يمنعه من الخروج إلى لقاء الروم الذين أغاروا على طرسوس . لأنهم لا يتركوننا لحظة للراحة وتجفيف العرق يا أبا الطيب ! ولقد كاد أنى يضيق بهم ذرعاً . ثم أخرج من كمة رسالة وقال : هذه رسالة أنى إليك . فقرأ المتنبي فإذا فيها : من سيف الدولة أبو الحسن بن حمدان إلى أنى الطيب أحمد ابن الحسين .

أما بعد فإنى أحمد الله إليك وأطلب لك العافية والسلامة . علمت بتركك الأسود ، وشكرت الله على نجاتك من هذا الطاغية . وإنى أبعث إليك بابنى وهو أغلى ما فى الحياة عندى ، لأرجوك فى العودة إلى حلب ، لقد تغيرت بعدك الأحوال يا أبا الطيب ، وقويت شوكة الروم وطمى طغيانهم ، وتخاذل الناس حولى وسثموا القتال . والإسلام والعروبة فى حلب أحوج ما يكونان إلى صوتك الرنّان ، وشعرك الفيّاض بالقوة والحماسة ليلهب العزائم ويوقظ الهمم . لقد كان وجودك إلى جانبي بحلب طالع يمن على وعلى المجاهدين فى الإسلام ، ولقد كانت أيامك أيام انتصار وفتوح ملأت الدنيا بوصفها ، وخلدت فى التاريخ ذكرها . أقبل علينا أبا الطيب فان السيوف تهتز فى أعمادها شوقاً إليك ، ومجالس الأدب تكتم أنفاسها انتظاراً لقدومك . أقبل يا شاعر العرب . وإذا كانت فى نفسك منى غضاضة ،

فانى أقول لك الآن ما قلته لى من قبل :

وإن كان ذنبى كل ذنب فإنه محا الذنب كل المحوم من جاء تأمبا
قرأ المتنبي الرسالة فتقاطرت الدموع من عينيه ، ثم قبلها مرات
وقال : إننى لولا العوائق لطرت إلى مولاي سيف الدولة . ثم
أطرق طويلا مفكراً مهموماً وهو يستمع لحديث نفسه وهى تقول :
يطلبك الآن سيف الدولة بعد أن نبذك وازدراك وتغاضى عن
إساءة أهله وعشيرته لك ، وبعد أن ضجر بإقامتك وممل ثواءك ؟
يطلبك بعد أن صرف وجهه عنك تيبهاً ، وترك ابن خالويه
يقذفك بالمفتاح فى وجهك دون أن يلتقى منه نكيراً ؟ لا يا أبا الطيب
لست العوبة فى أيدى هؤلاء الأمراء ينبذونها كلما ملوا اللهو بها .
عرفهم أبا الطيب أن نفسك أقوى من نفوسهم ، وأن كرامتك
فوق كرامتهم ، وأنتك إذا انصرفت نفسك عن الشيء لم تكذب
إليه بوجه آخر الدهر تقبل . على أنك قد لقيت من الشعر ما كفاك ،
ومن هؤلاء الأمراء المتقلبين ما تئن اليوم تحت أثقاله ، لا يا أبا
الطيب ، لا تذهب إلى حلب ، فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين !
ثم اتجه إلى سعد الدولة وقال : يقيم مولاي عندنا أياماً
ليستريح وربما تبعته إلى حلب . وأقام سعد الدولة بالكوفة حيناً ،
ولما عزم على الرحيل ودّعه الشاعر وألقى فى رحله قصيدة لأبيه من
أروع ما نظمه فى سيف الدولة منها :

ليس إلّاك يا على همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والحيلول ؟

أنت طول الحياة للروم غاز فتى الوعد أن يكون القبول ؟
 قعد الناس كلهم عن مساء يك وقامت بها القنا والنصول
 ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشمول .
 من عبيدى إن عشت لى ألف كا فور ولى من نذاك ريف ونيل

وعاد المتنبى إلى حياة الملل والفراغ ، وكان صديقه الحسن العلوى يكثر من ازدياره ويجهد فى تسليته والترويح عنه ، فبينما كانا فى أحد الأيام بظاهر الكوفة إذ رأيا شاباً فى نحو العشرين قوى العضل وثيق البناء قصير القامة غليظ الوجه عابس نظرات العينين ، يبدو كأنه ساخط على الوجود ومن فى الوجود ، ووراءه طائفة من الأعراب فى أسمال وأخلاق وهم يسرون خلفه فى رهبة ومهابة ، كما تسير العبيد خلف السيد المطاع . ومر الشاب ومن معه بالمتنبى وصاحبه فلم يزد على أن رفع بصره إليهما فى اشمئزاز ، ثم ابتسم ابتسامة سخرية وازدراء . فقال المتنبى :

— من هذا الوغد الجحافى يا سيدى الشريف ؟

— هذا ضبة بن يزيد ، وهو فتى قرمطى شرير خبيث ، لو أراد الشيطان أن يتخذ لروحه مكاناً ما اختار لها غير جسمه . إن هؤلاء القرامطة يا سيدى لم يتمسكوا بمذهبهم عن رأى وعقيدة ، ولكنهم قوم صعاليك فتاً كون نهابون ، عز عليهم أن يروا بعض الناس فى نعمة ويسر فأوغروا صدور الفقراء على الأغنياء ، وزينوا لهم نبد طاعة كل حاكم ، وأحلوا لهم السلب والنهب والقتل وكل ما يندى له الجحيين من رذائل . وقد وجدت دعوتهم قبولا

عند شدّاذ الأعراب الذين كانوا يقتلون ويسلبون في خوف وحذر ، فأصبحوا الآن يقتلون ويسلبون عن عقيدة ودين . هؤلاء القرامطة كارثة على الإسلام يا أبا الطيب .

— بلا شك ، وإني أعتقد أن هذه الثورات ليست إلا فتناً سياسية ابتدعها أعداء العرب لإضعاف دولة العرب ، وألبسوها ثوب المذاهب الدينية .

— هذا صحيح . وضبة هذا يسيطر على فريق من صعاليك بني كلاب ، وأظن أنهم يدبرون خطة للهجوم على الكوفة ، وقد أخذ أغنياء المدينة يجتاطون لأموالهم ، ويعدون العدة لصدّهم . — سأحعو بسيفي هذا وسأوس عقولهم إن كان لهم عقول . ومرت شهور ولا حديث للمدينة إلا غارات القرامطة وتخوف الناس من وحشيتهم وقبح أفاعيلهم ، وفي صباح أحد الأيام زار الحسن العلوي دار أبي الطيب وكان مضطرباً مهتاجاً ، فحيّاه المتنبّي وقال : — ما الخبر يا سيدي ؟ اجلس واهدأ قليلاً .

— لن أجلس يا أبا الطيب . فإن الفرصة قد أمكنت من هذا الوغد ضبة ، وقد سيّر إلى بعض رجالي رسولا يطلب النجدة ويقول ؛ إنهم قد ضيقوا عليه الخناق ، ولا يحتاجون إلا إلى بضعة فرسان للتغلب عليه وعلى أنصاره . قم يا أبا الطيب واركب معنا . — هذا هو اليوم الذي كنت أتمناه على الأيام فقد صدئ سيفي في غمده .

وركب أبو الطيب والشريف على رأس شزيمة من الفرسان ،

وما كادوا يصلون إلى ميدان المعركة حتى فر رجال ضبة شمايط ،
 والتجأ إلى حصن منيع أحكم إغلاق بابيه ، وأطل من نافذة
 ضيقة به وأخذ يسب ويلعن ويصبح :

— أين متنيكم هذا الكاذب المنافق الجبان ؟ أين ابن
 عبدان السقاء حتى أبصق في وجهه بصقة تذكره بالماء الذي
 كان يحمله أبوه ؟ أين هذا الدعى الفاجر لأعلمه أن امتشاق
 الحسام غير نظم الكلام ؟ فصاح الشريف :

— مرحى بمن يفر من الحراب ، ويقاتل بالسباب . إنك
 في الحق أجبن من فأر . ولكنك في الشتم أجزأ من أسد .

— إننى أقدم إذا كان الإقدام عزماً ، وأحجم إذا كان
 الإحجام عزماً . فصاح المتنبي :

— على شرط أنك لا ترى الإقدام عزماً في يوم من الأيام .

— اخساً يا دعى كنده . والله إن سبني ليحن إلى رأسك

ولكنه يخشى أن يدنس بدمائك .

فقال الشريف على المتنبي وقال : لقد جاوز الكلب الحد

وبلغ الغاية في الإقذاع ، اهجه يا أبا الطيب ، اهجه من
 صنف كلامه ونوعه ، ومزق عرضه كما تمزق النعل الخلق .

فجلس المتنبي هنيهة ثم أخذ ينادى ضبة وهو في حصنه بأقبح
 الألقاب ، وينشده قصيده قدرة الألفاظ والمعاني قذفه فيها بكل
 ما حققه من السباب ، ورماه ورمى أمه بما يتعسف عن ذكره أبداً
 الناس لسناً . وعاد جماعة المحاربين ولم يبلغوا من ضبة مأرباً ،

ولم يجرّد أبو الطيب سيفه من قرابه . وقال أحدهم :
 — لقد كانت قصيدة عجيبة ، وأغلب ظني أنها ستثير
 ضحيجاً في بني كلاب . وقال ثان :

— لعلها تؤدّب هؤلاء القرامطة وتصرفهم عن غيهم . وقال ثالث :
 — إن أخشى ما أخشاه أن تصل هذه القصيدة إلى أذن
 فاتك الأسدى . فالتفت المتنبي في انزعاج وقال :
 — ومن فاتك الأسدى هذا ؟

— فاتك الأسدى رجل قرمطي ، وهو خال ضبة بن يزيد ،
 وهو لص بطّاش مغامر يستحل دم الحجاج في الحرام ، والقصيدة
 كلها قذف في أخته وثلم لعرضها ، ولا أعتقد أنه يسكت عن هذا
 أو بعض هذا . فهانف المتنبي ساخراً وقال :

إذا صلت لم أترك مصالاً «لفاتك» وإن قلت لم أترك مقالا لعالم
 واستمر أهل الكوفة في خوف وذعر من القرامطة ، وعلمت
 فاطمة زوج المتنبي بخبر ضبة ، وتساقط إلى سمعها بعض أبيات من
 القصيدة فتوجست شراً ، ولم تستطع أن تحادث زوجها في الأمر .
 وبعد أشهر تجددت ثورة القرامطة وتجمعوا حول زعمائهم
 بظاهر الكوفة ، وصمموا على الهجوم على المدينة ، فالتف
 كبارؤها حول أبي الطيب وجهزوا فصيلة من الفرسان والرجالة
 لقتالهم ، وقد كانوا أرسلوا إلى بغداد رسولا لطلب المعونة ، وخرج
 أبو الطيب وعبيدة للقتال وحارب أياماً فأئخن في أعدائه ،
 وأنهت المعركة ، وفر بنو كلاب ، وعاد الشاعر الفارس منصوراً

مظفراً . وجاء جيش بغداد بعد أيام فخلع قائده « دلير » على
المتنبي وأجزل له العطاء ، وأنشده أبو الطيب قصيدة في الميدان
وقد كان ممتطياً جواده منها :
ذريبي أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة؟ ولا بد دون الشهد من لابر النحل
وسارت القصيدة في البوادي ، وسخط الأعراب على أبي الطيب
لدحه دلير الديلمي ، ومرت شهور ضاق فيها الشاعر بالكوفة
وتنمى لو وجد إلى سواها منفذاً ، وفي يوم طرق بابه فارسان
كان أحدهما يحمل رسالة من أبي الفضل بن العميد وزير
عضد الدولة « بأرجان » يدعو فيها الشاعر إلى الرحيل إليه ،
ويبذل له الوعود الحسان ، وكان الثاني رسولا من قبل سيف
الدولة يلح عليه في الذهاب إلى حلب ، ويغريه بكل وسائل
الإغراء ، وقد فكر المتنبي في الرسالتين وأطال التفكير ، فمرة
تدفعه عروبه إلى الرحيل إلى حلب وإلى السخط على الديلم
وكل من يتصل بالديلم ، ومرة ينفرك كما ينفرك المهر الشموس ويأبى
أن يعود إلى رجل أهين في حضرته فلم يدفع عنه ، وترك أعداءه
وحستاده يثلبون عرضه حتى اضطر إلى قصد الأسود الذي هدم
حياته وأهدر كرامته . وانتهى بالمتنبي الغزم إلى أن يعتذر إلى
سيف الدولة بأبيات ، وأن يقصد ابن العميد . وما كاد يلقى
الخبر على زوجته حتى غشيتها غاشية من الحزن والتطير وصاحت :

— لا تذهب يا أبا الطيب . بالله عليك لا تذهب . إن
أنفاسي لم تهدأ بعد مما لاقيت من فراقك الطويل ، وإن خفقات
قلبي لا تزال تأتي أن تظن أنك بجاني ، ولو كنت ممن يتقون
المخاطر ، ويتوقون المهالك ، لكان حزني لفراقك حزن امرأة غاب
عنها زوجها وبقيت تمني نفسها بلقائه ، ولكنك رجل إذا
ابتاحتك القفار تحديت الموت ، وسخرت من الخطوب ، ولم تبال
بالأسود ولا بالحيات السود .

فربت أبو الطيب ذراعها في رفق ، يقال :

— لا تخافي يا فاطمة فالطريق آمنة ، ولن أعيب عنك طويلاً .
— إن الوسواس تقتلني يا سيدي ، وإني أشعر في هذه المرة
— ولا أدري لم أشعر — بشيء يكاد يقف له قلبي ، فبالله عليك
لا ترحل يا أبا الطيب .

— هذه وسواس شيطان يا فاطمة فاصرفها عنك . ثم مدّ
إليها ذراعيه في رفقٍ فعانقته باكية مكلومة الفؤاد ، وأخذت تردد
الحسرات ، وتزوده بالدعوات ، فاجتذب نفسه من ذراعها
وأسرع إلى الباب فرأى عبيده قد أعدوا كل شيء للرحيل .
ففصل بن الكوفة ومعه ابنه محمد وعبداه مفلح في أول صفر سنة
أربع وخمسين وثلاثمائة قاصداً أرجان وهو يقول :

شرب البلاء مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما فنصته راحتي فنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

صحوة

- بلغ شاعرنا الجوال الرحالة بغداد بعد أيام ، ونزل بدار راويته
على بن حمزة وأغراه بالسفر معه إلى أرجان فلم يتردد غير أنه قال :
- كنت أتمنى أن تكون هذه الرحلة لأحد ملوك العرب .
- وأين هم الآن يا ابن حمزة ؟ إن خليفتمك المطيع لله
والمطيع للدليم لم يسمع باسمي ، ولم يعلم أين مكاني .
- كنت أؤثر أن ترحل إلى سيف الدولة .
- دعنا بالله من هذا الحديث فقد مجته نفسي .
واستراح المتنبي ببغداد أياماً ثم سافر منها إلى أرجان فنزل
بالأهواز ، وأقام يومين في ضيافة أبي على التنوخي وكان شاعراً
أديباً أخبارياً ، وبينما كان يمر بإحدى ساحات الأهواز إذ
سمع أعرابياً يهمس لصاحبه :
- هذا هو المتنبي الذي هجا ضبة ، والذي أقسم فاتك
الأسدي أن يقتله ولو تعلق بأستار الكعبة .
- وأين منه فاتك الآن ؟ إن بينه وبين الأهواز بعد
المشرقين .
- إن فاتك لا يتعجل الأمور ولكنه إذا عزم صمم ، وإذا
صمم أصمى .
سمع أبو الطيب هذا فاضطربت له نفسه ، ثم ابتسم وقال :

قاتل الله فاتكاً هذا . لا يزال الناس يتحدثون في أمرى وأمره .
ورحل عن الأهواز كاسف البال كثير الوسوس ، وما زال
يغد السير حتى أشرف على أرجان فرمى ببصره فرأى مدينة
ضيقة الرقعة صغيرة الدور مقفرة ، فhez رأسه وقال :

— أترك ملوك الأرض وسادات العرب لأسير شهراً إلى
هذه القرية الخاوية على عروشها ؟ ولأمدح رجلاً لو أنصف
الزمان لسجد لعظمتى ؟ ثم زفر وقال : هكذا حكم عليك يا أبا
الطيب أن تعيش مشرداً ، وأن تترك دائماً اللباب لتلهي
بالقشور . فأخذ ابن حمزة بذراعيه قائلاً :

— اهدأ يا سيدى فإنك محاط بجواسيس يعدون عليك
أنفاسك ، لقد نصحتك ببغداد أن تلوى عنانك إلى حلب
فهرتني في غضب ونكر ، ثم تجيء الآن بعد أن قطعنا الطريق
فتبكي على العرب وملوك العرب وتسخر من الفرس وبلادهم ؟
أين حمزك يا أبا الطيب إن هذه البوادر التي ينطق بها لسانك
من غير تحرزهي التي أفسدت عليك كل شيء بحلب ، ودفعتك
إلى الفرار تحت جناح الليل من مصر . لقد انتهى الأمر ، وقدمنا
إلى فارس ، فيجب أن تعقل لسانك عن أن ييوح بكلمة سوء ،
حتى إذا عشنا بها عشنا آمنين ، وإذا رحلنا عنها رحلنا مكرمين .
— لقد كنت فائل الرأي عازباً عن الحق في مجيئى إلى فارس

وترك العودة إلى حلب ، وما لى وللديلم ؟ أضاقت بى رحاب
الأرض ؟ أم سدت فى وجهى بلاد العرب ؟ أم عز من أبناء

مضرب من يفهم العربية فجئت هؤلاء الأعاجم أنشدتهم شعراً عربياً؟ إن قصدي للملك الديلم عقوق لعروبي وقومي . لقد قلت أبياتاً قليلة في مدح دليز فقامت قيامة الأعراب وكادت تكون فتنة ، فكيف إذا تحدثت الدنيا بأن أبا الطيب ألقى خلفه ملوك العرب ورحل صاغراً مستجدياً ملوك الفرس يشيد بفضلهم ويسخر من العرب والعروبة؟

— هذا والله ما كنت أخشاه ، حقاً إنك لرجل تعبت به الأهواء ، مرة تسخط علي العرب ، ومرة تحزن إليهم ، وهذه النفس الدوارة القلقة هي التي تجر عليك الشر ، وتوردك موارد المملكة . دعنا بالله نقيم بين القوم ما نقيم في اطمئنان وهدوء بال .

— نزلت أقيم طويلاً بين هؤلاء الأعاجم ، إنني أحزن يا ابن حمزة إلى الشام ومشاهدها ، وأصعب إلى حلب ورحبتها ، وأود في هذه اللحظة لو حملني بساط سلمان إلى بساط سيف الدولة . — كل شيء ينال بالصبر والحزم .

وبعث المتنبي إلى ابن العميد غلاماً يعلمه بقدمه ، وكان ابن العميد مضطجعاً في دستانه وحوله كبار رجاله وقد علم في الصباح بقرب قدوم المتنبي ، فالتفت إلى نديمه العلوي العباسي ؛

— إننا ننتظر من أبي الطيب شعراً أبلغ وأروع مما قاله في سيف الدولة وكافور .

— حقاً إنه كان ينثر درره فوق من لا يميزون الدر من الحصى ، أما وقد جاء ينشد « الجاحظ الثاني » الذى امتلك زمام الأدب ، ودانت له رقاب البلاغة ، فيجب أن يفكر طويلاً قبل أن يقول ، وأن يبرز من بدائعه ما لم يمر بخيال شاعر .
— أتعرف أن الأديب أحياناً تفوته الإجابة إذا حرص على أن يجيد ؟

— كيف يا سيدى ؟

— إنه إذا حاول الإتقان التجأ إلى التعمق والعمل ، وأدركته حال عصبية من التشكك تحول بينه وبين فطرته السليمة ، وقد لمح المتنبي الذى لم يفته شىء من خواطر النفوس هذا المعنى إذ يقول :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطب مع وعند التعمق الزلل
وبينما هما فى الحديث إذ دخل الحاجب يؤذن بقدم المتنبي
وأنه ينتظر بظاهر المدينة ، فوثب ابن العميد من مضجعه وأمر
حجابه وقواده باستقباله ، فسار الموكب وعاد بأبى الطيب بين
مظاهر الحفاوة والإكرام ، ولما مثل بين يدى ابن العميد قام له
وقرب إليه كرسيّاً عليه وسادة من ديباج وقال : لقد شرفت
بك بلاد فارس يا أبا الطيب ، ولقد كنا فى شوق إليك وإلى شعرك
وأدبك ، وكنا نتلقت أخبارك ونتزود بما يطير إلينا من أشعارك
بعد أن ملأت شهرتك الدنيا وشغلت الناس ، إن شعرك أصبح
حديث كل لسان ، ومستشهد كل أديب ، فالتقت ماتت إحدى

أخواتي فورد على نيف وستون رسالة في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقولك .

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاديشرقني فوقف المتنبي إجلالاً لهذا الثناء وقال : أدبي يا سيدي قطرات

من بحرك الفياض ، ولحات من عبقريتك النادرة . فابتسم ابن العميد واهتز للمديح ، ثم سأله عما لقيه في طريقه وما لاقاه في سفره ، فأفاض في وصف الطريق وما احتمله من عناء ونصب ، ثم أسرع فقال : وقد هون كل هذا رجاء مولانا والأمل في لقائه ، وبحث في كفه فأخرج درجاً كتب فيه قصيدة فوقف وأنشدتها

بين يدي ابن العميد ، وكان الجمع حاشداً ، وإعجاب السامعين شديداً ، والثناء على الشاعر متوالياً ، ووصله أبو الفضل بمائتي دينار وبسيف من أثنى السيوف وأغلاها ، وأفرد له داراً ونخص به خدماً وعبيداً . وكان الشاعر يزوره في كل يوم ويظهر الابتهاج

والسرور ، ويحمد الله الذي وفقه إلى قصده . واقتنص ابن العميد الفرصة فقرأ على أبي الطيب كتابه الذي سماه « ديوان اللغة » وكان يعجب لحفظه وغزارة علمه بالأوابد والنوادر . وأراد يوماً أن يتبسط مع أبي الطيب ويداعبه فقال :

— إن لي نظرات وماأخذ على قصيدتك التي أنشدتها .

فدهش المتنبي وقال :

— ما هي يا سيدي ؟

— لقد قلت :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ما لم يجر دمك أو جرى
ثم قلت بعد هذا البيت :

كم غر صبرك وابتسامك صاحباً لما رآه وفي الحشا ما لا يرى
وهذا تناقض بين ، فقد أخبرتنا في البيت الأول أن حبك
وبكائك ظاهران سواء أصبرت أم لم تصبر ، وسواء أجرى دمك
أم لم يجر ، ثم عقيبت بأن صبرك خدع الناس وأخفى عليهم وجدك
وهيامك . فأسرع المتنبى وقال :

— تلك حال وهذه حال ، غاية الأمر أن البيت الثاني متقدم
في الوجود على البيت الأول ، لأن هذا المحب في أول أمره
وقبل أن يضنيه الهوى ، ويغيّر حاله الهيام ، كان يغرم من رآه ،
ولكنه بعد أن ألح عليه السقم لم ينفعه الجلد ولم يُغن عنه الصبر ،
فبدا هواه لكل ناظر .

— هذا طريق ملتو لا تدرج فيه العقول . ثم ماذا تقول في
مخالفتك بين مصراعي البيت الأول ؟ فقد أتيت في المصراع
الأول بإيجاب بعده نفي ، وفي المصراع الثاني بنى بعده إيجاب .
— إنها مخالفة في اللفظ لافي المعنى يا سيدي ، لأن من
صبر لم يجر دمعه ، ومن لم يصبر جرى دمعه . ففقهته ابن
العميد وصاح : لن تغلب يا أبا الطيب ، فان لك في كل
مضيق منفذاً يخفى على كل عين .

وذهب المتنبى إلى داره وقد آلمه التقذ فالتقى با ابن حمزة وقال :

— لقد أتى على سيدك الرئيس اليوم درساً في الأدب والنقد .
 ثم أخبره بما دار في المجلس فهوّن عليه الأمر وقال :
 — إنها ممازحة أديب . فصاح المتنبي :
 — لا أحب هذه الممازحات .

— لقد أكرمنا الرجل وأحسن مثوانا ، فيجب أن نفضي عن
 بعض ما لا نحب ، بل يجب أن نعرف له بالسبق في ميدان
 الأدب في شيء من المجاملة والتواضع .

وجاء عيد النيروز وهو عيد يحتفل فيه الفرس بقدم الربيع ،
 وينثرون الورود في كل مكان ، وينظمون من الأزهار عقوداً
 وتيجاناً ، فأعد المتنبي قصيدة من أروع الشعر وأبدعه خيالاً
 وأحلاه رنين نغم ، هنا فيها أبا الفضل بالنيروز واعتذر عن بعض
 تقصيره في قصيدته الرائية وقد جاء في القصيدة الجديدة .

نحن في أرض فارس في سرور ذا الصباح الذي نرى ميلاده
 عظمته ممالك الفرس حتى كل أيام عامه حساده
 ما لبسنا فيه الأكاليل حتى لبسها تلاعه ووهاده
 عند من لا يقاس كسرى أبوسا سان ملكاً به ولا أولاده
 عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده

وقضى الشاعر شهرين في نسيافة ابن العميد مخموفاً بصنوف
 الإكرام والرعاية ، ولكن نفسه الملول أبت عليه أن يركد في
 مكان كالماء الآسن . فاغتنم لقاء الرئيس واستأذنه في الرحيل ،
 ولكن ابن العميد فاجأه بأن عضد الدولة ملك شيراز أرسل يلح

في قدومه إليه ، ويتشوف إلى لقائه ، وأنه بعث إليه بهدايا لم تظفر بمثلها الملوك . فاضطرب المتنبي وقال :

— بالله يا سيدي دعني من هؤلاء الذليلين . إنني شاعر عريف
وما أنزل الله الشعر على قلبي إلا لأكون لسان العرب ، وعنوان
العرب ، ومعيد مجد العرب .

— إن عضد الدولة رجل ديلمى النسب حنينا ولكنه عريف
النفس عربي التزعة ، وهو أديب شاعر يناصر العلم ويرفع شأن دولة
العرب ، وسيصل إليك من عطائه وصلاته فوق ما يتوهم خيال شاعر .
— بالله عليك يا سيدي لا تعرفني بهذه النوعود ، فإني

ملتق من هؤلاء الملوك ، ملدوغ من جحورهم ميات . ولولا
مطامحي ما أصغيت إلى أكاذيبهم ، ولعشت في خير حال ،
أقصد الواحد منهم بعد الآخر ، فأتوجه إليه بآيات خالديات
من الشعر الذي تحسده لآلي البحار ، فإذا نال مني ما يبتغي
تنكرت لي ، وصرف عني وجهه في صلف وكبرياء .

— إن عضد الدولة ليس من هذا الصنف يا أبا الطيب ، إنه
رجل خلق ليكون ملكاً ، وملك خلق ليكون رجلاً ، فلو أقيمت عنده
ما أقيمت لكان في يوم وداعك أحني منه بك في يوم استقبالك .
— ولكني ياسيدي رجل ملول شديد الضجر مولع بالنقلة ، وهذا

لا يرضى هؤلاء الملوك الذين يلذ لهم احتباسي على الرغم مني ، فإذا
قبلني على أن أقيم عنده كما أشاء ، وأرحل عنه متى أشاء توجهت إليه .
وكاتب ابن العميد عضد الدولة بشروط المتنبي فقبلها فشد

الرحال إلى شيراز كارهاً ، وقد زاد به الحنين إلى زوجه ، وعادت إليه أطيايف للشام وحلب ، ومر في طريقه بشعب « بوان » وهو غيضة كثيرة الأدواح الملتفة المزهرة ، والأشجار المثمرة ، والمياه المتدفقة ، وهو أحد منتزهات الدنيا الأربعة ، وقد أوجى هذا الشعب إلى أبي الطيب بروائع المعاني ، وهاج في نفسه ذكريات دمشق والعروبة وما للعرب من كرم ومجد حين يقول :

ولكن الفتى العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان
طببت فرساننا والخيل حتى	خشيت وإن كرم من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيها	على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبنا الحر عنى	وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها في ثيابي	دنانيرا تفر من البنان
ها ثمر تشير إليك منه	بأشربة وقفن بلا أواني
وأمواء تصل بها حصاها	صليل الحلبي في أيدي الغواني
ولو كانت دمشق ثنى عنانى	لبيق الرد صيني الجفان

ثم عاوده الحنين إلى زوجته وإلى الشام عامة فقال :

شامية طالما خلوت بها	تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني	وإنما قبلت به فاها
فليتها لا تزال آوية	وليته لا يزال مأواها
كل جريح ترجى سلامته	إلا فؤادا رمته عيناها
ما نفضت في يدي غدائرها	جعلته في المدام أفواها

ولما كان على نحو أربعة أميال من شيراز أرسل عضد الدولة وجوه دولته لاستقباله ، وبلغ القصر في هذا الموكب الحافل فأحسن عضد الدولة لقاءه ، وأنشده أبو الطيب قصيدة نال عليها أجزل الصلوات وأنفس الهدايا . وكان من شهود الحفل أبو علي الفارسي وعبد العزيز الجرجاني ، وهما من كبار رجال اللغة والأدب ، وأقام في ذرا ممدوحه زهاء ثلاثة أشهر كان فيها موضع الإكرام والحفاوة ، ولكنه كان ضجراً كثير القلق ، يمل النعم ويتزع إلى المخاطر ، ولقد كان يعبر عن نفسه حقاً حين قال :

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
فلما طغت عليه السامة دخل على عضد الدولة واستأذنه في
السفر وألح ، ولم يجد الرجل بدءاً إلا أن يأذن له ، وعاد المتنبئ
إلى داره فأخبر ابن حمزة ومحمداً بعزمه ، وأمر مفلحاً أن يستعد
بعد ثلاثة أيام ، فقال مفلح :

سأعد كل شيء ياسيدي غير أني أود أن أخبر مولاي
بأمر يزعمني ، وقد يكون تافهاً ، وقد يكون من وساوس نفسي .
— ما هو ؟

— رأيت قبل أن نرحل من أرجان أعرابياً يطوف حول دارنا
ويكثر التلفت والنظر ، فلم آبه له ولكنني عدت فرأيتُه هنا بالأمس
فسألته عن شأنه فقال : إنه رجل فقير رحل من العراق إلى فارس
طلباً للرزق ، ولكنه لم يجد عملاً ، ثم سألتني عن موعد عودة
سيدي إلى العراق ، فلما قلت له إنني لا أعلم ، وأظهرت الريبة

في أمره ، قال : إنه لا يملك راحلة ، وإنه يطمع في أن يحمله سيدي معه إلى العراق ، وإنه لذلك يسأل عن موعد سفره ، فخرجت الرجل وأبعده عن الدار .

— لا أرى من بأس في أن نحمل الرجل . فقال ابن حمزة :
— لا تتسرع يا أبا الطيب ، فقد يكون الرجل نذير شر ، وقد يكون جاسوساً عليك من أعدائك بعثوا به إلى فارس ليخبرهم بيوم رحيلك إلى العراق .

— هراء . إنني أتسلح بشجاعتى لا أبالي بمن عثم بمقامي أو رحيلي . على أن المتنبى قد ساوره شيء من الخوف . وطافت بنفسه ذكريات ضربة وحاله فاتك ، ولكن هذا الخوف لم يدم طويلاً ، فهز كتفه في استخفاف ، ثم طلب إلى مفلح أن يند ورقاً وأقلاماً وقام إلى حجرته فكتب قصيدة يودع بها عضد الدولة ، وركب إليه في الصباح وأنشده القصيدة فأجزل عطاءه وأحسن توديعه . وبينما كان المتنبى وصحبه وعبيده يستعدون للرحيل إذ نحو فارساً علي جواد أشهب يسبقهم إلى طريق العراق ، فصاح مفلح :
— هذا هو الأعرابي الذي كان يحوم حول دارنا بأرجان فقال محمد :
— ويل للوعد . حقاً إنه كان يترقب موعد سفرنا ليعرف الطريق الذي نسلكه . وقال ابن حمزة :

— هذا هو الذي ظننته . وامتنى المتنبى جواده وهو يقول :
فيل يا بعد عن أيدي ركاب لنا وقع الأسنه في حشاكا
والى ناسه يا طريقي فكوني أذاة أو نجاهة أو هلاكاً

قتل

في أحد أرباض الكوفة ، وفي ليلة حالكة السواد شديدة
البرد ، اجتمع عدد من الرجال يزيد على العشرة بدار مجاشع
الكلابي ، وجلسوا حول النار يصطلون . وكان بالحجرة سراج
خافت النور كاد يجف زيته فأخذ يخفق كأنه مريض دنف
دهمه الفواق قبل أن يسلم الروح . وكان جو الحجرة يوحي بالحزن
والفجاعة والدمار ، ولو كشف عن البصر الحجاب لرأى فوق
رعوس هؤلاء المقعنين حول النار أرواح الشياطين تحوم في مرح ،
وتصفق بأجنحتها في جذل وشماته . وكلما التمع السراج كشف
من القوم وجوهاً عابسة شرسة شريرة جرحتها السيوف وخرقتها
السهام ، وأعيناً يتأجج فيها الغدر ، وتضطرم الأحقاد . رفع
مجاشع الكلابي رأسه وقال :

— لقد مر بنا حين من الدهر لم نجرّد فيه سيفاً ، ولم نركض
جواداً ، حتى كدنا نفقد صفات البطولة ، وننام على الطوى ،
ونعلل صبغارنا بالماء . فقال شمر بن وهب :

— كنا نسقط على مدينة الكوفة بين الحين والحين ، ولكن
أهلها أخذوا لأنفسهم الحيطه وأعدوا جيشاً مرابطاً . واستمنازوا
ببعض جنود بغداد ، فكلما أرسلنا عليهم غارة شتتوا شملها
وأثخنوا في رجالها . فقال مجاشع .

— وكلما توالت هزائمنا تفرق عنا الطامعون في الغنائم ؛

حتى أصبحنا قلة ضئيلة خائرة العزائم. فأسرع فهد القيسى قائلاً :
— وكانت قاصمة الظهر تلك الهزيمة التي رمانا بها ذلك

المتنبى الشاعر الدعى ، والله لو ظفرت به لشربت دمه .

— صدقت يافهد، ولن تفوتنا حياته ولو كانت في قمقم سليمان .
أتدرون لم أمرنا ضبة بن يزيد بالاجتماع هنا الليلة؟ فقال شمر :
— لا أدري ، ولكنى علمت منذ أيام أن خاله فاتكاً قد

يزور الكوفة في طريقه إلى واسط .

— فاتك؟ إنه رجل أى رجل . ولعله يهدينا إلى صيد جديد ،
فقد ظمئنا إلى الدماء ، وصفرت أيدينا من المال . ثم سكت
القوم هنيهة فسمعوا عن بعد عواء كلب جائع مقرور اخترق
صوته سواد الليل حزيناً مؤلماً ، كأنه ندب الثواكل ، ولم تمر إلا
لحظات حتى سمع طرق خافت . فقام مجاشع ففتح الباب
وعاد معه فاتك الأسدى وضبة ، فقام القوم لتحيتهما في شيء
من الرهبة والمهابة ، وكان فاتك في الثلاثين من عمره ، طويل
القامة متين العضل متناسق التكوين شديد السمرة عرنى الملامح
براق العينين في وميض يكاد يصرع من يراه ، وكان كثر
اللحية وقد وقف شعرها كأنه شوك قنفذ . حيا فاتك الجماعة
في ابتسامة كأنها كشرة الأسد ثم قال في لهجة العاتب :

لقد جئت الليلة أيها الإخوان لأمر ذى بال أردت أن أحدثكم
فيه ، ولو أن واحداً منكم هزته الأريحية وثار في نفسه الغيرة
لقبيلته وقومه لأغنانى عن تجشم الطريق واجتياب القفار ،

كلكم أهل لضبة ، وكلكم قبيله وأنصاره ، وإذا مس عرض ضبة فقد مست أعراضكم جميعاً ، وإذا طعن شرفه فقد أصابتكم الطعنة جميعاً ، ولقد ترامت إلى أخبار أفضت مضجعي ، وأثبتت الشوك في وسادي ، وتناقل الرواة أبياتاً قدرة من شعر نجس لطح به ذلك الشاعر الدعي المنبوز بالمتنبي ابن أختي ضبة ، يا للهول . ويا للعار . إنه لشعر تعفّف البغي عن أن تدنس فيها بكلمة منه ، ويأنف مجان الحانات من أن يلقوا إليه سمعاً ، فقد ولغ هذا الكلب الفاجر في عرض أختي فلم يترك كلمات من مستقذرات اللغة حتى وصمها بها ، ولم يدع سهماً مسموماً بالفحش والإقذاع حتى صوبه إليها ، وعجيب أن يقال هذا الكلام الدنس فتناقله الصبيان ، ويتنادر به المجان ، وتسير به الرواحل من بلد إلى بلد ، وتملأ ريحه المنتنة جو الصحراء ، ثم لا تثورون ولا تغضبون . ثم لا تروون سيوفكم من دماء هذا الغوى الأفك . ثم لا تمحون هذا العار عن أنفسكم وعن قبيلتكم بضربة فيصل . لقد أصبحتم متندر القبائل ، وسخرية العرب جميعاً ، ولقد جئت أيها الإخوان لأغسل العار عن نفسي وعنكم ، لقد جئت لأجرد سيفاً وأصون شرفاً ، لقد جئت لأقطع لسان الأفعى وأهشم أنيابها . مرحى . مرحى . يا لضبيعة العرب . شرف أختي يمرغ في التراب في كل مجلس وفي كل سامر ، وأخوها فاتك الذي ترتجف لهوله الصحارى ، ويخلع اسمه كل قلب ، يجلس في عقر داره هانئاً رضيعاً ، لا يأخذ لها بثأر ولا يدفع عنها يمين ؟ شرف أختي يداس بالنعال وأهلها

ينظرون واجمين ذاهلين؟ فصاح مجاشع :
 — غداً نذهب إلى الكوفة ونذبحه ولو كان بين ذراعى أسد .
 فأجابه فاتك حزيناً :

— إنه ليس بالكوفة ، إنه رحل منذ شهر أو أكثر إلى بلاد فارس .
 — نذهب إلى فارس ونقتله ولو كان في حماية كسرى
 أنو شروان . وهنا وقف شمر بن وهب وقال :

— الرأي عندي يا سيدي أن يرحل أحدنا إلى فارس وأن
 يبحث عنه حتى يصل إلى مكانه ، ثم يوجر فيه خنجره . فقال فاتك :

— لقد قاربت الصواب فإني أوافقك على أن يسافر رجل
 منا إلى فارس ليعرف مكانه ، ويرقبه عن كئيب ، حتى إذا
 رحل عائداً إلى العراق أسرع إلينا بدير العاقول فأخبرنا بطريق

مروره فسرنا نحوه ووثبنا عليه ومزقناه تمزيقاً ، فقال ضبة :
 — ولم لا نقتله بفارس ونستريح من مشقة السفر ومظنة فراره ؟
 — ذلك لأننا لا نريد أن نكتفي بسفك دمه ، وإنما نريد

فوق ذلك أن نهب كل ما سيعود به من فارس من أموال
 ونفائس وذخائر وتحف أغلى من أن تقدر بثمن ، وأعز من أن
 يحوزها قصر ملك . فصاح القوم جميعاً :

— نعم الرأي يا فاتك ، إنك لرجل ملقن .
 واتفق القوم على أن يرحل شمر بن وهب إلى فارس ، وأن يضم
 ضبة إلى جماعتهم نحو عشرين لصاً من فتاك الأعراب ، وأن يسيروا
 جميعاً تحت لواء فاتك إلى دير العاقول لينتظروا فريستهم هناك ،

وليتربصوا للقتل والغنائم. وتفرق القوم على أن يلتقوا في موعد ضربوه .
 وخرج المتنبي من شيراز في نحو العشرة من عبيده ومعه
 بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والثياب والكتب
 ونفائس الهدايا ، وسار الراكب في جو باسم الصباح رفيق النسيم ،
 وكان المتنبي على غير عادته منبسطة أسارير الوجه إلى ما يقرب
 من المرح ، حتى إنه كان يمازح ابن حمزة ويصغى في
 أناة ورفق إلى حديث محمد ، ويداعب مفلحاً ويدعوه
 بكافور الأمين . وقد تكون هذه النشوة الطارئة لأنه استطاع
 أن يتخلص من الديلم من غير اصطدام أو عريضة على
 خلاف عادته في مفارقة كل أمير أو ملك ، وقد تكون لأنه
 أنفذ نفسه ولسانه من مدح غير العرب والإشادة بمجد غير
 مجد العرب ، فقد كان شيء من ذلك يؤلم نزعة العربية ،
 ويكدر عليه صفو حياته . وقد تكون لأنه عاد إلى وطنه بهذه
 الأحمال والأموال والكنوز التي لم يظفر بمثلها شاعر منذ هلهل
 ابن ربيعة الشعر ، وقد تكون لأنه وقد طالت عليه الغربة واشتد
 به الحنين يشعر اليوم بأنه عائد إلى أهله وزوجته التي لا يزال
 يحس بخفقات قلبها في صدره ساعة توديعه وبتناثر دموعها فوق
 خديه . قد تكون هذه النشوة الطارئة لهذا جميعه أو لشيء منه
 أو لشيء لم نعرفه من نزعات هذه النفس الضخمة المليئة بالأسرار .
 وحينما لمح ابن حمزة هذه البارقة العابرة التي قليلا ما لمعت بهذا
 الوجه الغائم العبوس أراد أن يغتنمها فقال :

- ما رأيك يا أبا الطيب في سيف الدولة ؟
- عربى قصير الباع طويل الأمل . وعييه أنه إذا من من .
- وماذا ترى في كافور ؟
- غراب حوله رخم وبوم .
- وكيف تصف المهلبى ؟
- هر رأى في مرآة كاذبة أنه أسد .
- ومعز الدولة ؟
- شبح للجهل والبخل والشراسة .
- يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخاً على كرسیه معما
- وماذا تقول في ابن العميد ؟
- رجل ما زال يغرى الشعراء بمدحه بالأدب والكتابة حتى
- اعتقد آخر الأمر أنه أديب كاتب .
- وعضد الدولة ؟
- تاج من ذهب فوق رأس من خزف
- وما رأيك في عبد العزيز الجرجاني ؟
- أراد أن يفلسف الأدب فشوه الأدب وأضعف الفلسفة .
- وماذا ترى في أبى على الفارسى ؟
- أعجمى حاول أن يطوع اللغة إلى أصول وهمية هي أبعد
- في الخيال من شعرى .
- وكيف ترانى ؟
- فيك ما يجعلك لسان نفسك ، ولكنك تأبى إلا أن

تكون لسان غيرك .

فضحك ابن حمزة وابتسم المتنبي ولكن هذا الابتسام طار من وجهه بعد قليل وخلفته سحابة مظلمة من الحزن والكآبة ، فزفر وقال :

وما الموت إلا سارق دق شخصه يصلو بلا كف ويسعى بلا رجل
ثم أخذ يردد :

نعد المشرفة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
وهنا قال ابن حمزة :

ما هذا الشعر القاتم يا أبا الطيب؟ وما لنا ولذا ذكر الموت والمنون؟
— الموت يا ابن حمزة راحة الحزين وموئل اليأس . كانت لي
آمال ومطامح يا ابن حمزة فأين هي ؟ أ رأيت هذه الذرات
التي تراقص في أشعة الشمس والتي يسمونها بالهباء ؟ هذه
هي آمالي . أ رأيت هذه الحفرة هناك ؟ إنها كانت بئراً فطمرتها
الرمال وغطتها السواني ، هذه هي آمالي . أ رأيت إلى هذا النسيم
الذي إذا مددت إليه يدك لنقبض عليه فر من خلال أصابعك ؟
إنه يا ابن حمزة آمالي . كانت لي آمال ، وكانت لي مطامح ،
فعبثت بها يد الأيام ، وطوحت بها الطوائح . وكانت لي أحلام
ناصرة باسمه فتيقظت بعد نهاية العمر فلم أجد نصرة ولم الملح
ابتساماً ، كنت أطمح إلى أن أكون رجل الدنيا فأبت على
الدنيا ، وكنت أطمح إلى أن أكون ملكاً فنبذتني العروش
وسخرت مني التيجان . وكنت أقول :

سأطلب حتى بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التمشوا مرد
فلم أجد مشايخ إذا وجدت الحق ، ولم أجد الحق إذا
وجدت المشايخ ، وأنا اليوم أعود إلى داري بالكوفة شيخاً هما
حظمته الأيام وثلمته الحوادث .

— ما هذه الخواطر السود يا أبا الطيب ؟ لقد أعطتك الدنيا
من الجاه والمال وبعد المنزلة فوق ما تمتد إليه أعناق الشعراء .

وبلغ الركب الأهواز بعد عشرين يوماً فحطّ الرحال ليستريح
وأسرع أبو الحسن السوسى عامل الأهواز فاستقبل المتنبي وأضافه
أياماً ، ثم استأنف الرحيل إلى واسط ، وفيها كتب عنه ابن حمزة
بعض قصائده في عضد الدولة واعتذر عن التخلف عنه لمرض
نزل به ، فسار الركب قاصداً إلى بغداد ثم الكوفة ، ومر المتنبي
ببلدة تسمى « جبيل » فنزل ضيفاً على أبي نصر محمد الجبلي
فأحسن الرجل وفادته وأكرم مثواه .

أما عصابة فاتك فقد أحكمت إنفاذ مؤامرتها ، ورحلت
عن الكوفة على النحو الذى دبّرتة ، وربضت بدير العاقول
تنتظر قدوم المتنبي ، فأسرع إلى القوم شمر بن وهب جاسوسهم
بفارس وأخبرهم برحيل المتنبي وبأنه كان يرقب طريق سيره ،
وبأنه رآه بالأمس وهو يحط رحاله بجبل ، فتواثبوا إلى خيولهم
وأخذوا يجوبون الطريق بين دير العاقول وجبل .

وحيثما عزم المتنبي على الرحيل جلس إليه أبو نصر وقال :
— على أى شىء أنت مجمع يا أبا الطيب ؟

— لقد عزمت على الرحيل مساء اليوم ، وسأخذ الليل مركباً
فإن السير فيه يخف على .

— نعم الرأي يا أبا الطيب . ولكنى أرى أن يكون معك جماعة
من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع الخفية . فقطب
المتنبي وجهه وقال :

— لِمَ تقول هذا يا أبا نصر ؟

— إنما أردت أن تستأنس بهذه الجماعة في الطريق فصاح
في غضب :

— أما ونجاد السيف في عنقي ، فما بي حاجة إلى مؤنس
غيره . فأجابه في مضض .

— الرأي لك يا أبا الطيب ، وإنما كنت لك نصيحاً .

— إن تلويحك يا أبا نصر ينيء بشيء ، فعرفني جلية
الأمر . فزفر الجبلي زفرة طويلة وقال :

— جلية الأمر يا سيدي أن فاتك الأسدى كان عندي منذ
ثلاثة أيام ، وهو يتقد عليك غضباً لأنك هجوت ابن أخته
ضبة ، وقد بدرت منه بوادر توجب عليك الاحتراز والتيقظ ،
ومعه نحو ثلاثين من بني عمه يأكلون النار ويحطمون الحجر الأسود .
فالرأي يا سيدي أن تأخذ معك عشرين رجلاً يسرون بين
يديك إلى بغداد . فانتفخت أوداج المتنبي من الغيظ وصاح :
— لا والله لا أرضى أن يتحدث عنى الناس بأنى سرت في
خفارة أحد غير سيني . فأسرع أبو نصر يقول وقد نفذ صبره :

— يا هذا ، إني سأوجه معك قوماً من قبلي يسرون بسيرك ،
ويكونون في خفارتك .

— لا والله لا فعلت شيئاً من هذا . أمن عبيد العصا تخاف
على؟ والله لو أن منحصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد
كلهم معطشون بخمس ، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ،
ما جسر لهم خوف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله أن أشغل فكري
بهم لحظة عين ، إنهم كلاب عاوية يا أبانصر ، ولن يمسا شعرة مني .
— قل إن شاء الله يا أبا الطيب .

— هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ، ولا تستجلب آتياً .
وركب المتنبى ومعه عبيده وذخائره في ليلة حالكة الظلام ،
وأخذ طريقه حتى حاذى النعمانية ، ثم أغذ السير حتى قارب
الصفافية وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخاً . وفي اليوم الثامن والعشرين
من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة خرج عليه في هذا
المكان فاتك ورجاله فقاتلهم الشاعر قتال الأبطال ، حتى قُتل
جميع من كانوا معه وبقي وحيداً يضرب بسيفه ذات اليمين وذات
الشمال ، وقد نال منه الضعف وأخذ منه الوهن ، فتحمل عليه
فاتك وطعنه في جنبه الأيسر فأسقطه عن جواده فارتدى على
الأرض ، وأخذ يجر بأنفاس قصار تراحمها حشرجة الموت ويردد:
ردى حياض الردى يا نفس واتركي

حياض خوف الردى للشاء والغم
إن لم أذكرك على الأرواح سائله فلا دعيت ابن أم المجد والكرم